كـشـف اللـبـس

عـــن المـــسائـــل الخـــمـــس

لشيخنا الشيخ سعد أبيه
بن الشيخ محمد فاضل بن مامين

الحمد لله الذي تنزه عن مماثلة الأشياء واستغنى بكمالاته عن العوض والغرض وتقدس عن مضاهاة الجسم والعرض فمن علينا بالعناية والهداية حتى ترقينا في معارج العرفان والدراية فوقفنا على شروط أحكام البداية حتى ظفرنا بمشروط أحكام النهاية فدخلنا في منيع حمى جناب الربوبية لما تحققنا بأوصاف العبودية فنوه برفع صيتنا الملك الديان إذ قال في محكم كتابه : (إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) فكانوا بعز تلك الإضافة هم المعقل المنيع ووسيلة إلى الوصول إلى المقام العالي الرفيع والسلامان على سيدنا محمد الذي نالوا ذلك التوسل من نداوة شاطئ بحره واقتبس الأنبياء حظهم من نور مشكاة سره صلى الله عليه وسلم وعلى آله صلاة لا نهاية لها كما لا نهاية لكماله.

أما بعد فيقول سعد أبيه أكمل له الله ما يرتجيه :إن مريدنا الحاذق الذائق والصفي الموافق الفائق محمد عبد الله بن موسى الجكاني قد سألنا عن أسئلة يبديها الجواب وقال إن فتحها أعجز سائر الطلاب وأشكل أمرها على ذوي الألباب فأردت فتحها بعون الله الوهاب إسعافا له بمراده وشفاء لغلة فؤاده وسميته كشف اللبس عن المسائل الخمس فيقول مستعينا بالله تعالى متوكلا على الله .

فصل : أما قولك إن بعضهم ينكر "التازبوت" ويزعم أنها سحر وأنه يدعي أنه رأى في بعض الكتب أن كل خارق للعادة بسبب فهو سحر وأنك تريد الفرق بين السحر وغيره من الخوارق فالجواب والله الموفق للصواب أن التازبوت هي الانتقام من الظالم إما أن تكون من الله تعالى بلا سبب وإما أن تكون بواسطة همة الولي أو باستجابة دعائه وهذه الأنواع الثلاثة إنما هي من أنواع الكرامة فمن نفاها فقد نفى الكرامة لأن نفي الأخص يستلزم نفي الأعم فلنشرع في إثبات الكرامة فاعلم أن هذا الزاعم إما أن يكون من العلماء الذين يقتبسون من نور القرآن العظيم ومن سنة النبي الكريم ويستنبطون منهما الأحكام جريا على القواعد الأصولية وإعمالا للعزائم الاجتهادية فلا بد أن نسوق له أدلة الكتاب والسنة والإجماع والقياس على إثبات الكرامة وإما أن يكون من العامة المقلدين فلا بد أن نسوق له كلام العلماء المجتهدين على ثبوت ذلك ليقلدها إن كان محقا غير مجادل ولا ذا مراء وإما أن يكون من المنكرين الملحدين الغالين أو من القراء الجاهلين الذين قال الله لهم (مثل الذين حملوا التورية ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) فقد أرشدنا الله تعالى إلى الخلاص منه بقوله:(وأعرض عن الجاهلين) لأنه ممن (أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله) ثم إني أقدم بين يدي الكلام على المسائل

مقدمة: أذكر فيها أدلة المقدمة وحدودها على وجه الاختصار ليكون الناظر فيه على بصيرة منها فاعلم وفقني الله وإياك بما يحبه ويرضاه وسلك بنا وبك طريق العلم والعمل به في تقواه أن الأصوليين قد حصروا الأدلة في الكتاب والسنة والإجماع والقياس فأما الكتاب فهو اللفظ المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم لأجل الإعجاز بسوره المتعبد بتلاوته وأما السنة فهي كل ما نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم من صفة وقول وفعل وتقرير لأنه فعل له وأما الإجماع فهو اتفاق المجتهدين من هذه الأمة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على حكم نازلة في أي عصر من لدن عصر الصحابة رضوان الله عليه إلى هلم جرا وأما القياس فهو حمل معلوم على معلوم في حكمه للاستواء في علة الحكم وأما الاستدلال فهو طلب الدليل ومحاولته بقواعد راجحة في العقل كالاستصحاب والقياس المنطقي وانتفاء المدرك والمقتضى والاستقراء ونحو ذلك أما الكتاب فكل ما نص عليه بنص صريح لا بظاهر لا يحتمل غير معناه فمجمع على اتباعه إن لم ينسخ وأما المنسوخ فقد رفع حكمه بالنسخ واختلف فيما يتحول إليه الحكم المنسوخ هل الإباحة أو رفع الحكم الشرعي وقيل غير ذلك وأما الظاهر كدلالة تنبيه الخطاب والعام والخاص والمطلق والمقيد ومحتمل محمل الأمر والنهي ففي كلها من الاختلاف ما يحيد بنا جلبه عن سنن الاقتصاد في الجواب وأما السنة فما كان منها خبرا عن الله تعالى كقوله عليه السلام فرض عليكم الله تعالى كذا أو أمركم بكذا أو نهاكم عن كذا فهو قطعي في معانيه اللغوية القطعية وقيل إنما فرض الله بالسنة أو حرم بها لا يبلغ حد الموجب والممنوع بالكتاب ولأجل ذلك لم يترتب حد من حدود الله ولا تعزير من تعزيراته إلا على حكم قرآني ودليله قوله تعالى : (ونزلنا عليك القرآن تبيانا لكل شيء) (ما فرطنا في الكتاب من شيء) وقوله عليه السلام : (لا تكتبوا عني غير القرآن فمن كتب عني غير القرآن فليمحه) وقوله عليه السلام :(ما أحل الله في كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا

من الله عافيته) وأما الإجماع فهو حجة قطعية دليله قوله تعالى : (ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى) وقوله عليه السلام : (لا تجتمع أمتي على ضلالة) وفي رواية (إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة) (يد الله مع الجماعة) (من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية) فظاهر الآية والحديث يقتضي عموم كل المؤمنين وتعريف جمهور الأصوليين يقتضي تخصيصه بالمجتهدين إلا أن السكوتي من الإجماع مختلف فيه وأما الاستدلال فهو بالظواهر العقلية وإنما يحتج بها إن لم يوجد غيرها وأما القياس فقد اختلف في قبوله شرعا فمنعه بعض وأوجبه بعض وأباحه بعض عند فقد غيره ودليل مانعيه قوله عليه السلام : (تعمل هذه الأمة برهة بالكتاب وبرهة بالسنة وبرهة بالقياس فإذا فعلوا ذلك فقد ضلوا) والبرهة بالضم القطعة من الزمان ودليل منعه أيضا قول الصديق الأكبر رضي الله عنه أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله برأيي وقول عمر رضي الله عنه إياكم وأصحاب الرأي فإنهم أعداء السنن أعيتهم الأحاديث فضلوا وأضلوا وقول علي كرم الله وجهه لو كان الدين يؤخذ قياسا لكان باطن الخف أولى بالمسح من ظاهره وقال القرافي إن ما روي من ذم القياس محمول على القياس الفاسد الوضع لمخالفته النص واستدلوا لجوازه بإجماع الصحابة على العمل به وبقول عمر لأبي موسى الأشعري رضي الله تعالى عنهما اعرف الأشباه والنظائر وما اختلج في صدرك فألحقه بما أشبه بالحق وهذا هو عين القياس وقد نبه عليه السلام على القياس في مواضع وإلى كلام القرافي أشار صاحب مراقي السعود بقوله :

وما روي من ذمه فقد عني به الذي على الفساد قد بني

والحاصل أن جميع الأدلة مختلف فيه إلا ما كان من صريح الكتاب والسنة وإجماع أمة الإجابة فلنقتصر على هذا القدر خوف التطويل ولنرجع إلى المقصود من إثبات الكرامة عقلا ونقلا ولنبتدئ قبل ذلك بحدها والفرق بينها وبين غيرها من سائر الخوارق حتى تتميز وتتشخص في الذهن والخارج ثم نأتي بعد ذلك بأدلة ثبوتها فاعلم أن الكرامة هي ما يتحف به الكريم من نزل بساحته من جائزة وبشاشة ونحو ذلك وهي اصطلاحا خرق عادة جار على يد ملتزم اتباع السنة بلا دعوى نبوءة وهي للأولياء وأما المعونة فهي الخارق الذي يظهر من قبل عوام المسلمين ليخلصهم الله تعالى أو يخلص على أيديهم من محن الدنيا وإن لم يتصفوا بالولاية والفرق بين الكرامة والمعجزة أن المعجزة خرق عادة من نفس خيرة داعية إلى الخير مقارن لدعوى الرسالة متحدى به قبل وقوعه غير مكذب ما تتعذر معارضته قوله خرق عادة : العادة كل أمر عاد الناس إليه واستمروا عليه مرة بعد أخرى وبه سمي العيد عيدا وخرقها مخالفة حكمها تشبيها لها بالسور المحيط بالناس فإذا خالفها الأمر فكأنها خرقت فخرج بقوله من نفس خيرة السحر والشعوذة والإهانة والابتلاء وبقوله دعوى الرسالة الإرهاص وبقوله متحدى به الكرامة والمعونة وبقوله قبل وقوعه ما لو ظهرت آية فقال شخص أنا نبي وما مضى معجزة وبغير مكذب خارق يشهد على خلاف دعواه كمن تحدى بإحياء ميت فحيي وكذبه وخرج بقوله تتعذر معارضته ما يعمل من خوارق الأشياء وقال علي الأجهوري : إن كل ما يتوصل به إلى الخوارق في السيميات والطلسمات والعزائم والخواص واستخدام العلويات ونحوها لا تتعذر معارضة مدعيه وقد بان بهذا امتياز المعجزة من الخوارق السبعة التي هي الإرهاص والابتلاء والإهانة والاستدراج والسحر والشعوذة والمعونة والكرامة فلنفسر هذه الأنواع السبعة حتى تتميز الكرامة أيضا عنها أما الإرهاص فهو ما يظهر من الخوارق قبل دعوى النبوءة تأسيسا لها وتثبيتا لإيحاش صاحبها وتقوية ليقين الناس فيه وذلك كما ظهر من بركة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هلاك أصحاب الفيل قبل ميلاده الشريف بخمسين ليلة وما شاهدته والدته في حمله ومولده من الهواتف والبوارق والأنوار وما شاهدت ظئره حليمة من درور شائها وسمنها بعدما كانت عجافا وخصب العيش عندها بعد محل وما شاهد فيه عمه أبو طالب وإخبار الرهبان وما شاهد فيه ميسرة من إظلال الملائكة وتضاعف ربح تجارته وما شاهد فيه قريش حتى سموه الأمين وما شاهدت فيه خديجة حتى رغبت في نكاحه وغير ذلك وأما الابتلاء فهو الخوارق التي تظهر على يد الدجال بعد وأما الإهانة فهي مؤكدات تكذيب الكاذب كما وقع لمسيلمة دعا لأعور أن يزول عوره فعمي وبصق في بئر عذبة ليكثر ماؤها فقل وصارت ملحا أجاجا وأما الاستدراج فهي الخوارق التي تظهر على يدي من لم يستقم دينه فكلما جدد معصية جدد الله نعمة حتى يظن أن المعاصي سبب المزيد فلا ينزل ينكر به ويستدرج من حيث

لا يعلم وأما الشعوذة ويقال لها الشعبذة بالباء الموحدة والذال المعجمة ففي القاموس الشعوذة خفة في اليد وأخذ كالسحر يري الشيء بخلاف ما هو عليه في رأي العين وفي تفسير الأخوين الشعوذة إظهار عمل شيء تشتغل به قلوب الناظرين انتهى ففي قوليهما إنها ليست من السحر إلا أنها تقرب منه وأما السحر ففي تفسير الأخوين عند قوله سبحانه وتعالى:(يعلمون الناس السحر) إتيان نفس شريرة بخارق ناشئ عن مداولة محرم فإن اقترن بكفر فكفر وإلا فكبيرة وقال ابن العربي السحر كلام مؤلف يعظم به غير الله تعالى وتنسب إليه المقادير ومنه ما يفرق بين الزوجين ومنه ما يجمع بينهما ويسمى التولة وكلاهما كفر وقيل هو يستعان به على التقرب إلى الشياطين في ما لا يستقل به الإنسان وأما ما كان من خواص الأشياء فليس بكفر ولكنها كبيرة انتهى، وقال الغزالي في الإحياء السحر نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأمور حسابية في مطالع النجوم فيتخذ من تلك الجواهر هيكلا على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقتا مخصوصا من المطالع ويقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش ويتوصل بها إلى الاستعانة بالشياطين ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور وقد سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرض حتى كان يخيل إليه أنه فعل شيئا ولم يفعله فأخبره جبريل عليه السلام بذلك فاستخرجه من تحت صخرة في قعر بئر وقال الكواشي إن العمل به كفر وكذا تعلمه إلا أن يتعلمه ليجتنبه وأما ما روي أنه يقلب الأعيان فيجعل الآدمي حمارا مثلا وأن الساحر قد يطير في الهواء فالأصح أن ذلك تخييل في أعين الناظرين وفي قلوبهم حتى يروا الأشياء على غير حقائقها قال تعالى:(يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) وقد يطلق السحر في عرف المتكلمين على أمور كثيرة منها السعي بين الناس بالنميمة ومنها الاستعانة بخواص الأدوية والمعادن كاجتذاب حجر المغناطيس للحديد فيظن الناظر أن ذلك سحر وحكي أن كنيسة ببلاد الروم عمل في جدرانها الأربعة وسقفها وأرضها ست حجرات من المغناطيس متساوية القدر وجعل في هوائها صليب من حديد بقدر ما يتساوى فيه جذب تلك الأحجار بحيث لا يغلب حجر منها أصحابه في الجذب فلزم من ذلك وقوف الصليب في الهواء دائما من غير آلة تمسكه ظاهرا فافتتن به قوم من النصارى ومنها الشعبذة وقد تقدمت ومنها السيمياء وهي قريبة من الشعبذة وهي أن تركب أشياء من خواص وضعية كأدهان خاصة أو مائعات خاصة أو كلمات خاصة توجب تخييلا خاصا في إدراك الحواس مأكولا أو مشروبا ونحو ذلك كماروي أن بعض أهل زماننا هذا يأخذ بعر الإبل ويصره في ثوب أو نحوه ويتكلم بما لا يفهم ثم يحل عنه الصرة تمرا أو نحوه وكما روي عن الأوزاعي في يهودي كان معه في سفر فأخذ ضفدعا فسحرها حتى صارت خنزيرا فباعها لقوم من النصارى فلما وصلوا بها إلى بيوتهم رجعت ضفدعا فلحقوا باليهودي وهو مع الأوزاعي فلما دنوا منه طار رأسه عن بدنه فولوا هاربين فزعا وبقي الرأس يقول للأوزاعي يا أبا عمر انظر هل غابوا فلما بعدوا عاد الرأس إلى جسده ومنها الاستعانة بالجن بالرقي والعزائم والتسخيرات وهو ما يسمى بالاستخدام وهو الذي أضل الحاكم العبيدي لعنه الله حتى ادعى الألوهية ولعبت به الشياطين حتى طلب المحال ومنها الهيمياء وهي أن قوما يقتلون بالهمة ويختبرون صحة ذلك بالاجتماع إلى حبة رمان فيجردون هممهم إلى انتزاع حبها دون مباشرة فيفتحونها فإذا هي فارغة لا حب فيها وهذا هو سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية انتهى، قلت ولعله هو المسمى الآن بالمص والسل وهو في السوادين غالبا وأقرب شبيه له الإصابة بالعين ففي الحديث:(العين حق ولو كان شيء يسبق القدر لسبقته العين) قال الفخر الرازي إن الله تعالى يخلق معنى في العين ينبعث من عين العائن فيتصل بالمعين فيؤثر فيه بقدرة الله تعالى ويكون ذلك إما لكمال محبة أو لكمال حسد من العائن ولذا ورد التعوذ من عين الودود وعين الحسود انتهى، وفي حاشية علي الأجهوري عن النووي والرافعي وغيرهما أن السحر لا يظهر إلى على يد فاسق بخلاف الكرامة فإنها لا تظهر إلى على يد صالح فإذا تأملت جميع ما تقدم ظهر لك منه الفرق بين الكرامة والسحر وأما المعجزة فقد ذهب أكثر العلماء أن شرائط المعجزة كلها أو أكثرها توجد في الكرامة حتى إحياء الموتى والجمادات ووجود ولد من غير أب وإنما يفترقان بادعاء النبوءة فدلالة المعجزة قطعية ودلالة الكرامة ظنية إذ قد يكرم بها مؤمن من غير ولي وإن النبي يعلم أنه نبي وأكثر الأولياء لا يعلم أنه ولي ولذا كانوا لا يسكنون لها ويفرون منها لئلا تكون استدراجا وقد تحصل الكرامة باختيار الولي وبدعائه وهمته لتصديقه في دعواه وقد تحصل بدون ذلك ولما كان الولي غير مأمور بدعائه الخلق إلى نفسه كانت الكرامة غير لازمة في حقه فلا يقدح عدمها في ولايته بخلاف النبي فيجب أن يكون له معجزة لأنه مأمور بدعوة

الناس فبالناس حاجة إلى معرفة صدقه ولا يعرف إلا بالمعجزة بخلاف الولي فليس بواجب على الناس ولا عليه هو أن يعرفوا أنه ولي فالمعجزة مطلوب إظهارها شرعا والكرامة ينبغي إخفاؤها أدبا مع الله عز وجل فإن أظهرها بعضهم فعن إذن من الله تعالى إما لفائدة دينية من بشارة أو نذارة أو تربية يقين في مريد أو غير ذلك قال سيدي علي الخواص إن العارف الكامل كرامته باقية معه وبطريقه دائما ولو ترك النوافل والخيرات وأرباب الأحوال ذووا نقص متى تركوا قيام الليل بطل تأثيرهم في الكون وصاحب اليقين لا يخاف زوال شيء فبهذا ظهر التمييز بين الكرامة والمعجزة فلنرجع إلى إثبات الكرامة جملة وأنواعها فنقول وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق اعلم أن الكرامة جائزة عقلا ثابتو شرعا واقعة نقلا مفيد اليقين لبلوغه حد التواتر أما جوازها عقلا فقد قال الإمام الغزالي في الإحياء إن الدليل القاطع الذي لا يقدر أحد أن يجحده على ثلاثة الأول عجائب الرؤيا الصادقة وإنما ينكشف بها الغيب فإذا جاز ذلك في النوم جاز في اليقظة إذ لم يفترقا إلا في ركود الحواس في النوم وكم من مستيقظ غافل لا يسمع ولا يبصر لاشتغاله في نفسه الثاني إخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغيب وبأمور في المستقبل ثم تظهر كما قال واستجابة دعائه في هلاك الخمسة المستهزئين وغيرهم وإذا جاز ذاك لنبي جاز لغيره كما تقرر عند أهل العقائد أن كل ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي الثالث عموم قدرته تعالى فإنه فعال لما يريد يظهر ما شاء من الخوارق على يد من شاء من الناس وأما ثبوتها فقد جاء في القرآن العظيم وأحاديث النبي الكريم لا يخرج عن حد الحصر من ذلك قصة مريم وقصة أصحاب الكهف وقصة آصف بن برخيا في سرير بلقيس وما أجرى الله تعالى على يدي الخضر عليه السلام وذي القرنين وامرأة فرعون وغير ذلك وأما الأحاديث فمنها حديث جريج الراهب الذي كلم الطفل في المهد قال يا غلام من أبوك قال فلان الراعي وحديث أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم صخرة فلما عاينوا الهلاك دعوا الله تعالى بأعمال صالحات سلفت لهم فانفرجت عنهم فخرجوا يمشون أخرجه البخاري بطوله وحديث (لرب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره) ولو لم يرد فيه إلا هذا الحديث لكفى دليلا لأن هذا الإبرار عام في كل شيء وحديث (لو خشيتم الله حق خشيته لزالت لدعوتكم الجبال) وأما ما تواتر من كرامات الصحابة رضوان الله عليهم فكثير كرواية عمر رضي الله عنه للجيش بنهاوند وقد تكاثر عليهم العدو وهو على المنبر يخطب فأرشدهم إلى الانحياز إلى الجبل فقال يا سارية الجبل من ترك الحزم ذل فانحازوا إلى الجبل فكان لعمر كرامتان ما كوشف له من أمر الجيش وسماع سارية صوته ومن ذلك أنه لما فتح مصر وأمر عليها عمر بن العاص وكانوا قبل الإسلام إذا غاض النيل زينوا له شابة جميلة فألقوها فيه فيسيل فكتبوا إلى عمر بذلك فكتب إليه عمر أما بعد فمن عمر ابن الخطاب إلى نيل مصر إن كنت تسيل من قبلك فلا تسل وإن كنت تسيل من عند الله فسل بإذن الله تعالى وأمر بإلقاء الكتاب في النيل ففعلوا فسال ولم يحتج بعد ذلك إلى شيء وإلى هذا أشار ابن بونا بقوله :

كرامة الولي حق وظهــر	منها كثير كرسالة عمــر
لنيل مصر وسماع سارية	كلامه من البلاد النائيـــة
والكشف والعلم بلا تعلــم	وكالوصول للبقاع الحرم
بحيث ما كانوا بلا تكــلف	وكل أمر خارق مشـرف
لكن من أوجب هذا أفرطـا	في حقهم ومن أباه فرطـا

ومن ذلك حديث الصديق رضي الله عنه ففي كتاب المنة على اعتقاد أهل السنة أنا أبا بكر رضي الله عنه نزل به ركب من وفود اليمن فوضع لهم جفنة من حيس فأكلوا منها حتى نهلوا وهي على حالها ولم تنتقص فردوها إليه فردها إليهم وقال لهم كلوا فإني ما أتيتكم بها إلا لتأكلوا فقالوا والله ما منا من أحد إلا وقد شبع فقال لهم كيف شبعتم ولم تنقصوا فقالوا هو كذلك فحملها إلى عياله فأكلوا منها حتى نهلوا وهي بحالها فتركها حتى أصبح فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله صلى الله عليك وسلم لعل الشيطان تلاعب بي البارحة فقال صلى الله عليه وسلم وما ذلك فإن الله لم يجعل للشيطان عليك سبيلا فقص القصة قال وكانت نفسي أحقر عندي من أن يكون ذلك من الله فأقبل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقد ظهر البشر في وجهه وكان صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه فقال هو من الله يا أبا بكر

أما علمت أن الله تعالى يظهر الآيات على أيدي الأولياء كما يظهرها على أيدي الأنبياء وإن هذه كرامة أكرمك الله بها فأمره أن يأتي بالجفنة فبعث إليها فأتت وقد بعث إلى أهل الصفة فجعلوا يأكلون أرسالا العشرة وينصرفون ثم العشرة كذلك حتى شبعوا عن آخرهم ثم أمر صلى الله عليه وسلم بحملها إلى حجراته فأكل منها أزواجه حتى شبعن ثم أمر بها فردت إلى بيت أبي بكر وقال إنها ستقوم بضيفك ما أقاموا فجعل أبو بكر رضي الله عنه يبعثها إليهم ليلا ونهارا فقالوا يا أبا بكر إنك لتنهلنا من أحب الطعام إلينا وكنا أهل ترف أي سعة في المأكل والمشرب ولا نقدر على هذا إلا المرة بعد المرة فقال هذا من بركة أثر أصابع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فازدادوا إيمانا على إيمانهم فقالوا نشهد أنه عبد الله ورسوله انتهى من فرائد الفوائد للبدالي ، وقد عزاه إلى الصحيحين ثم قال فإذا كان عليه الصلاة والسلام يقول إن الله تعالى يظهر الكرامة على أيدي الأولياء كما يظهرها على أيدي الأنبياء فقد صار ذلك دليلا قاطعا على وجوب كرامتهم في الجملة وكاف أصلا لقول الفقهاء كل ما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي فكل كرامة أعطاها الله تعالى لولي من أوليائه فهي كرامة لذلك الولي ومعجزة لنبيه لأنه ما نال ذلك الأمر إلا من بركة متابعة نبيه وتبليغ دعوته ونشر سنته فكان خليفته النائب عنه في هداية أمته وقد جاء في تفسير قوله تعالى:(ولسوف يعطيك ربك فترضى) بأن يجعل في أمتك خلفاء الرسل علما وحكما وحالا وقيل بأن لا تنقطع شريعتك ولا تنتهي دعوتك بل تتجدد بتجدد الأعصار على أيدي الأولياء الأخيار انتهى كلام البدالي ، قلت وأما التازابوت التي هي الانتقام من الظالم فما هي إلا نوع من الكرامة لأنها محض استجابة دعاء فمن أنكرها لا يؤمن أن يكون ذلك خللا في إيمانه لأنها ثبتت بالكتاب والسنة والإجماع فصار منكرها كالمكذب لذلك كله فقد روي عن حب رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد ابن حارثة أنه قال : اكتريت بغلا من رجل واشترط علي أنه ينزلني حيث شاء فأنزلني في دار خربة فإذا فيها عظام قتلى كثيرة قتلها ذلك الرجل فلما أراد أن يقتلني قلت دعني أصلي ركعتين فقال لي صلاها قبلك هؤلاء القوم فلم تنفعهم صلاتهم ولما صليت أتاني ليقتلني فقلت يا أرحم الراحمين فسمع صوتا يقول لا تقتله فتهيب فخرج يطلب فلم يجد شيئا فجاء ليقتلني فناديت ثانيا وثالثا فإذا بفارس في يده حربة في رأسها شعلة نار فطعنه بها فأنفذها من ظهره فمات ثم قال لي لما دعوت كنت في السماء السابعة والثانية في السماء الدنيا وفي الثالثة أتيتك وإلى هذا أشار البدوي المجلسي في نظمه على الأنساب بقوله :

والحب زيد اكترى من رجل	مطية ونزلا بمنـــــــــزل
ليس به غير عظام قتـــــلى	رجا لها الرجل ذا وحمــلا
عليه فاستغث زيد بالرحيـــم	وعنه فرج بإهلاك الرجيم

ومن ذلك ما أخرجه ابن أبي الدنيا عن عبد الرحمان بن زيد بن أسلم قال : قدم رجلان من أشجع إلى عروس لهما حتى إذا كانا في موضع من الطريق إذا بامرأة تقول ما تريدان قالا عروس نجهزها فقالت إن لي بأمركما علما فإذا فرغتما فمرا علي فلما فرغا مرا عليها فقالت إني متبعتكما فحملاها وكان يتعاقبان بها على بعيريهما حتى أتوا على كثيب رمل فقالت إن لي حاجة فأناخا فانتظراها ساعة فأبطأت فذهب أحدهما في أثرها فأبطأ قال الآخر فخرجت في طلبه فإذا أنا بها على بطنه تأكل كبده فلما رأيت ذلك رجعت وأخذت طريقا غير طريقنا فإذا بها أمامي تقول لقد أسرعت لما رأيتني أبطأت فلما أزفرت قالت مالك قلت إن بين أيدينا سلطانا جائرا قالت أفلا أخبرك بدعاء إن دعوت به عليه أهلكته قلت ما هو قالت اللهم رب السماوات السبع وما أظلت إلخ قلت ردديه علي حتى أحصيه فرددته علي حتى حفظته فدعوت به وقلت اللهم إنها ظلمتني وقتلت أخي قال فنزلت نار من السماء في سوأتيها فشقتها نصفين فوقعت شقة ها هنا وشقة ها هنا انتهى من كتاب لطائف القدس في أسرار آية الكرسي فبان من مجموع هذا أرد مدعي نفي التازابوت وأنها لا تكون إلا بسبب سحر لأن الدعاء والهمة من أنواع الأسباب وقد ينتقم الله لبعض أوليائه ممن آذاه بغير دعاء ولا همة بل ولا قصد ولا علم كما روي أن بعضهم رماه إنسان بحجر فسقط الرامي ميتا فقيل له أنت مع جلالة قدرك تغضب على أحد من خلق الله فقال والله ما عزمت عليه بشر إلا أن العدل ينتقم لأصفيائه وكما روي أن بعضهم قابله إنسان بقذع فلم يلبث أن سقط عليه حائط فمات فقيل للولي في ذلك فقال والله ما شعرت به حتى مات ولا حين يتكلم قلت ولو لا ما وجب من كتم الأسرار لكتبت ها هنا

من الأسماء الحسنى ومن الآيات المحكمة والأدعية المأثورة ما لو تلي على جبل لذاب وعلى ظالم لمات من حينه أو زال عقله أو ابتلعته الأرض أو وقع فيه غير ذلك مما أراده التالي من المهلكات والمصائب في النفس والأهل والمال والولد لكن أنشدوا :

من ساررره فأبدى السر منكشفا	لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعدوه فلم يحظى بقربـــــــهم	وأبدلوه مكان الأنس إيحاشـــــا

وأما ما تواتر عن التابعين فمن بعدهم من الصالحين فخارج عن الحصر بل وأشهر عند العام والخاص .

تتمة : ذكر اليافعي عشرة أنواع من الكرامة وتبعه السبكي في الطبقات الكبرى وزاد عليها منها أحياء الموتى قال الزركشي وأما ما قاله القشيري من أن الكرامة لا تنتهي عند إحياء الموتى فمذهب ضعيف فقد ما ت لأبي عبد الله التستري فرس في الغزو فسأل الله فأحياه الله بدعوته وكذا قصة شاب مع الشيخ عبد القادر الجيلي إذ أنكرت أمه أكل لحم دجاجة ولم يشرك ولدها وكان تلميذا عليه فجمع الشيخ عظام الدجاجة فأشار إليها فقامت حية بإذن الله وقال لها لا يستحق الشرك معي حتى يفعل هكذا وكذا روي أنه مرت بمجلسه حدأة شوشت على الحاضرين فقال يا ريح خذي رأسها فوقعت جثتها لناحية ورأسها لناحية فأخذها وأمر يده عليها قال بسم الله الرحمن الرحيم فحييت بإذن الله تعالى وطارت والناس ينظرون فتضمنت هذه القصة ثلاث كرامات مطاوعة الريح وهلاك الحدأة وإحياؤها انتهى وكان للهمداني عنز يطعمها فقتلها الخادم ورماها في دار خربة وسأله الشيخ عنها بعد ليلتين أو ثلاث فقال لا أدري فناداها الشيخ فأتت إليه تمشي فأطعمها على عادته وكذا مات بعض أصحابه فحزن فأتى إليه وقال قم بإذن الله تعالى فقام حيا وعاش بعد ذلك ما شاء الله انتهى وهذا كله كلام ابن حجر ومن أنواع الكرامة كلام الموتى وهو أكثر من النوع الأول كما روي عن أبي سعيد الخراز والشيخ عبد القادر وغيرهما ومنها انقلاب الأعيان كما روي أن الشيخ عيسى المني عمد إلى كأسي خمر فصب أحدهما على الآخر فانقلبت الخمر سمنا جيدا ومنها انزواء الأرض وهو كثير ومنها كلام الجمادات كما حكي أن شجرة رمان قالت لإبراهيم بن أدهم يا إبراهيم كل مني ثلاث مرات فأكل منها فطابت وطاب رمانها وحملت في العام مرتين فسميت رمانة العابدين ومنها إبراء العلل كما روي أن الشيخ سيدي عبد القادر قال لمقعد مفلوج مجذوم قم بإذن الله فقام لا علة به ومنها طي الزمان ونشره وفي تقدير هذين عسر على الأفهام ويشهد لنشر الزمان ما سهل لكثير من العلماء من التصنيف في الزمن اليسير بحيث لو وزع ما صنفوه على أعمارهم من زمن اشتغالهم بالعلم إلى أن ماتوا لوجد لا يفي به نسخا فضلا عن التصنيف واتفقوا أن عمر الشافعي لا يفي بعشر ما أبرزه من التصانيف مع ما ثبت عنه من ختم القرآن كل يوم مرة وفي رمضان كل يوم ختمتين مع اشتغاله بالتعليم والفتاوى والذكر والنوافل مع الأمراض الكثيرة بحيث لم يخل من علة أو علتين أو أكثر وربما اجتمع فيه ثلاثون مرضا وكذا حسبت كراريس مصنفات السيوطي فإذا هي بعدد أيام عمره أو أكثر منها ومنها مقام التصريف وحكي منه العجب العجاب حتى روي أن بعضهم كان يبيع المطر وجل الكرامات راجع إلى هذا المقام وإليه أشار حديث (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها) فمن تحقق بهذا المقام تكونت الأشياء عن همته ولذا قالوا بسم الله منك بمنزلة كن منه كما وقع للشيخ عبد القادر وآصف بن برخيا وغيرهما فمن هذا ما ذكره إمام الحرمين في الشامل أن الأرض زلزلت على عهد عمر رضي الله عنه فحمد الله وأثنى عليه وضربها بالدرة وقال قري يا أرض ألم أعدل عليك فاستقرت حينئذ وذلك أنه رضي الله عنه كان خليفة في الظاهر والباطن فعزر الأرض إذ زلزلت من غير ظلم ولا جور كما يؤدب سكانها إن أساؤوا انتهى بنقل اليدالي .

فائدة : نقل الشعراني في كتابه الدرر عن الحاتمي أن الكرامة على قسمين حسية ومعنوية ولا تعرف العامة إلا الحسية مثل الكلام على الخواطر والإخبار بالمغيبات والمشي على الماء وفي الهواء وإجابة الدعاء ونحو ذلك فصاحب هذا عند العامة هو الولي وأما الكرامة المعنوية الحقيقية عند الخاصة فما هي إلا الاستقامة وهي أن يحفظ الحق جل جلاله على عبده آداب الشريعة ويوفقه لمكارم الأخلاق ويرفعه عن سفاسف الأمور ويوفقه لأداء الواجبات والسنن والفضائل في أوقاتها على أكمل الوجوه ظاهرا وباطنا

ويسير عليه المسارعة إلى أنواع الخيرات وأن يطهر قلبه من كل وصف ذميم ويحليه بكل خلق كريم وأن يلزمه المراقبة مع الله تعالى ومراعاة الأنفاس فلا يغفل لحظة ولا تمسه فترة فيراعي حقوق الحق والخلق في نفسه وغيرها فيعطي كل ذي حق حقه ولا تناله في الله لومة لائم فهذه هي الكرامة التي لا يدخلها مكر ولا استدراج لمصاحبتها العلم والوقوف مع حدود الشريعة وجلت الحقيقة أن تنصب حبالة المكر الإلهي إذ هي عين الطريقة الواضحة إلى نيل السعادة قال الشعراني رأيت سيدي علي الخواص رضي الله عنه إذا وقع له شيء من الكرامات الحسية يضج ويسأل الله تعالى أن يستره بالعوائد وأن لا يتميز عن العامة إلا بالعلم لأنه المطلوب وبه تقع المنفعة (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) قال فإن قيل ما الذي يحفظ الكرامة الحسية من المكر الخفي والاستدراج فالجواب يحفظه من ذلك استصحاب ميزان الشريعة ليزن به أحواله في كل نفس لأن في الكرامات استدراجا لا يشعر به إلا العارف قال تعالى (سنستدرجهم من حيث لا يعلمون) وقال بعض السلف ألطف ما يخادع الله به الأولياء الكرامات والمعونات ويروى أن أبا حفص كان جالسا وحوله أصحابه فنزل ظبي من الجبل فبرك عندهم فبكى أبو حفص رضي الله عنه فسئل عن ما يبكيه فقال كنتم حولي فوقع في قلبي أن لو كان لي شاة لذبحتها لكم فلما برك هذا الظبي عندنا شبهت نفسي بفرعون حين سأل الله تعالى أن يجري معه النيل فأجراه فبكيت وسألته الإقالة مما تمنيت ثم سيب الظبي وعن بعضهم أنه كان يسير في البيداء فانتهى إلى بئر فإذا الماء قد ارتفع إلى رأس البئر فقال يا ربي إني لأعلم أنك قادر على هذا ولكن لا أطيقه فلو قيضت لي أعرابيا يصفعني صفعات ثم يسقيني شربة ماء لكان ذلك أسلم لي وقال أبو يزيد رضي الله عنه كنت في بدايتي يرني الحق تعالى الكرامات والآيات فأعرض عنها فلما رآني كذلك جعل لي إلى الحق سبيلا وقال يحيى بن معاذ رضي الله عنه إذا رأيت الرجل يشير إلى الكرامات والآيات فطريقه طريق المحبة وهو أعلى من الذي قبله وإذا رأيته يشير إلى الذكر فطريقه طريق العارفين وهو أعلى درجة من جميع الأحوال انتهى من بن عباد .

فـــصــل

وأما سؤالك عن معنى المراقبة والمشاهدة والمجالسة والمكالمة والمحادثة وهل لها حدود تعرف بها أو هي معان لا يعرفها إلا من رأها فالجواب والله الموفق للصواب أن المراقبة هي التحقق بمقام الإحسان الذي هو أن تعبد الله كأنك تراه بحيث يتمكن من قلبه حتى لا يخطر عليه خاطر بغيره فمثاله من رفع السف على رأسه لحز عنقه إن لم يمتثل ما أمر به فلا حضور في قلبه لغير ما يتوقعه من حز عنقه عند المخالفة فمن لازم التحقيق بقرب الحق منه دامت مراقبته إذ عليه رقيب التقوى في الأداء ثم رغيب الخشية الغفول وهيبة الجلال وحياء الحضور وأنشدوا في هذا المعنى :

كأن رقيبا منك يرعى خواطـــــري	**وآخر يرعى ناظري ولسانـــــي**
فما رمقت عيناي بعدك منظـــــرا	**يسوءك إلا قلت قد رمقانـــــــي**
ولا خطرت في السر بعدك خطــرة	**بغيرك إلا عرجا بعنانـــــــــــي**
ولا برزت من في دونك لفظـــــة	**لغيرك إلا قلت قد سمعانـــــــي**
وإخوان صدق قد سمعت حديثهـــم	**فأمسكت عنه ناظري ولسانـــــي**
وما الدهر أسلو عنهم غير أننـــــي	**وجدتك مشهودا بكل مكـــــان**

وأما المشاهدة فهي عبارة عن شهود وجود الحق من غير بهمة وقال القشيري المشاهدة شهود العين بلا أين وقال غيره رؤية الحق في كل ذرة من ذرات الوجود مع التنزيه عن كل ما لا يليق بعظمته وقيل المشاهدة مطالعة الجمال والجلال ببصيرة القلب بوجه يقوم به مقام العيان من حيث لا وهم ولا كيف ولا أين فصاحب المشاهدة مستغرق في وجود ذاته وفي كتاب الشيخ خان الحلبي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقول ما رأيت شيئا إلى رأيت الله قبله ويروى أن الشيخ أبا عبد الله الزواوي رضي الله عنه كان في خلوة فلم يرع أهله إلا أن خرج إليهم وهو يرقص ويطير وينزل كالمجنون ويقول لقد رأيت الله لقد رأيت الله فقالوا كيف رأيته فقال الكيف مستحيل والأين مستحيل ولا أدري إلا أنه انعكس ظاهري في باطني وبصري في بصيرتي وعلانيتي في سريرتي واستهلكت صفاتي في صفاته وانعدمت ذاتي في ذاته فرأيته حقا حقا فقال بعضهم أما أنا فقد أيقنت بما قلت وأسأل الله "أن يتفضل علي بمثل ما أعطاك وقال آخر أما أنا فلا أصدقك ولا أكذبك وقال قاضي زواوة هذا كذب وزور فقال الشيخ للأول أما أنت فقد استجيب

لك فكان بعد ذلك من أولياء الله تعالى وقال للثاني وأما فلا لك ولا عليك وأنت للخير أقرب وقال للقاضي أما أنت فتموت كافرا فلما حضر الموت القاضي دعا بمصحف فنظر فيه فقال ما هذا إلى العبث وما فيه من فائدة وأشهد على نفسه بالكفر به وبما أنزل فيه والعياذ بالله تعالى وأما المجالسة فهي عبارة عن التزام العبد الخضوع والأدب في بساط العبودية حتى كأن مولاه جليس له فيكرمه مولاه إكرام الجليس جليسه ففي الحديث الرباني (أنا جليس من ذكرني) والمعنى أنه يؤنسه بلطفه ويقربه بعطفه حتى لا يكله إلا غيره فالمجالسة أعلى رتبة من المراقبة والمشاهدة إذ قد يحصلان دونها لأنه يمكن أن تراقب وتشاهد من لم تجالسه وأما المحادثة والمكالمة فهما بمعنى وهما أعلى رتبة من المجالسة إذ قد تحصل دونهما لأنك تجالس من لم تكالمه وهما عبارة عن نهاية الحضور واشتغال سمع القلب بالذكر حتى لا يكون له حديث غيره وإليه أشار الجنيد رضي الله عنه بقوله لي ثلاثون عاما أتكلم مع الله والناس يظنون أني أتكلم معهم فمن كان محققا بهذا الحال أكرمه مولاه بأن يحدث عنه بالأسرار والآثار كما في حديث (كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكونوا في أمتي فعمر منهم) ويعبر عن ذلك التحديث بالإلهام واختلف الأصوليون في حجيته قال صاحب مراقي السعود :

وينبذ الإلهام بالعـــــراء أعني به إلهام الأوليـــــاء
وقد رآه بعض من تصوفا وعصمة النبي توجب اقتفا

وقال في نشر البنود : الإلهام إيقاع شيء في القلب يثلج له الصدر أي ينشرح ويطمئن من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة يخص الله به بعض أولياءه وهو من الأدلة المختلف فيها فقيل ليس بحجة لعدم الثقة بخواطر من ليس معصوما إذ لا يوقى دسيسة الشيطان فيها وذهب بعض الصوفية إلى أنه حجة في حق الملهم دون غيره وقيل حجة مطلقا فهو بمنزلة الوحي المسموع لقوله تعالى (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) ولخبر (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله) وكون النبي صلى الله عليه وسلم معصوما يوجب الاقتداء به في خواطره في حقه وحق غيره اتفاقا إذا تعلق بهم انتهى .
وهذا هو تفسير المراقبة وما معها على وجه التمثيل والتقريب وأما الوقوف على حقائق معانيها فلا يدرك إلا بالذوق فلا يطلع على حقائق معانيها إلا من أكرم بحظ وافر من ذلك ولذلك أنشدوا :

ما كل قولي مشروح لكم فخـذوا ما تعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
حتى يصير إلى القوم الذين غذوا بما غذيت به والدهر مجتمـــع

وقال الشيخ محيي الدين بن عربي إنما كان الناس ينكرون على أهل الله علومهم لأنها تأتي من غير طريق مألوفة وهي طريق الكشف وأكثر علوم الناس من طريق الفكر وما كل أحد يقدر على جلاء مرآة قلبه بالمجاهدة والرياضة حتى يفهم كلام القوم ويدخل إلى حضرتهم ولله في ذلك حكم وأسرار انتهى من كتاب للشعراني ونقل ابن عباد في شرح الحكم العطائية أن بعض الفقهاء كتب إلى بعض مشايخ الصوفية يسأله عن مسائل فقهية وسأله في آخرها عن قول بعضهم :

ما وحد الإلـــــه من واحد إذ كل من وحده جاحـــــد
التوحيد من ينطق عن ذاته عارية أبطلها الواحـــــد
توحيده إياه توحـــــــيده ونعت من ينعته لاحـــد

فأجابه الصوفي عن المسائل الفقهية وقال له في الأبيات أما كلام فلان نفعنا الله به فاسهر كسهره وجع كجوعه تفهم معناه وأنشدوا :

علم التصوف علم ليس يدركـه إلا أخو فطنة بالحـــــق موصوف
فكيف يعرف شيئا ليس يعرفـه أم كيف يدرك ضوء الشمس مكفوف

واعلم أن التصوف على قسمين الأول ما كان في النظر في أحوال القلب من حيث تطهيره من الأوصاف الذميمة كالكبر والحسد والحقد والحرص ونحوها وكذا تخلقه بالأخلاق الحميدة كالزهد والرضا والتفويض والتسليم ونحوها فهذا النوع يجوز بل يجب بذله للعام والخاص لقربه من الأذهان لأن مبناه القيام بآداب الشريعة الثاني هو ما كان من الحقائق من تحقيق الأحوال والمقامات وأحوال الأذواق والمنزلات والمعارف الإلهية والعلوم اللدنية وهذا النوع قد اختلف في منعه لغير أهله وقيل يختلف باختلاف النسب والأنواع والتقريب أن ما كان للوعظ والتذكير فللخاص والعام وما كان للبيان والتقريب فلخواص المحبين وما كان من الأحوال والمنزلات فللمربين والسالكين وما كان من الحقائق والمعارف فللواصلين وقال الثوري لا يبذل لغير أهله ولهذا كانوا يقفون في هذا العلم على ساحل بحر الإشارة لأن إفشاء سر الربوبية كفر وأنشدوا :

ومن شهد الحقائق فليصنها وإلا سوف يضرب بالحسام
كحلاج المحبة إذ تفاشـــى ولم يقدر على وهج الضرام

وقال آخر :

وما كل ما في مضمر القلب والحشا من السر يعطى للرجال الأجانـــب
ولكنني من كان أهلا أفدتـــــه علوما بها يسمو لأعلى المراتـــب

ويروى أن بعضهم سأله إنسان عن شيء من هذا العلم فلم يجبه فقال له أو ما سمعت حديث (من سئل عن علم نافع فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار) فقال له ضع اللجام واذهب فإن جاء من يستحقه ومنعته فليلجمني به نقله ابن عباد وقال بعضهم من كلم الناس بمبلغ علمه ولم يخاطبهم بقدر عقولهم فقد بخسهم حقهم ولم يف بحق الله فيهم وقال يحيى بن معاذ اغرف لكل أحد من نهره واسقه بكأسه وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار وفي الخبر (لا تحدثوا الناس بما لا تدركه عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله) ونحن نقول كل لكل إنسان بمكيال عقله وزن له بميزان علمه كي ينتفع بك وتسلم منه .

فصـــل وأما قولك فهل رفع الصوت بالذكر جائز في المساجد أم مكروه أم لا ؟ فالجواب أن ذلك في تفصيل وهو إن كان في المسجد من يشوش عليه الذكر والتلاوة فالجهر حينئذ مكروه أو ممنوع وقال محمد بن غنيم النفراوي عند قول الرسالة ويكره العمل في المساجد حيث لا يمنع مصليا ولا يقذرها أو يضيق على مصل فيحرم لأن المساجد وضعت للعبادة وأجيزت القراءة والذكر والتعلم والتعليم فيها تبعا للصلاة حيث لا يشوش على مصل وإلا منع انتهى ولذا منع جهر بعض المصلين على بعض وأما إن كان المسجد خاليا من المصلين البتة أو كان فيه مصل لا يشغله الذكر ولا غيره لكمال حضوره وغيبته عن الأكوان كما وقع لعروة بن الزبير حين قطعت رجله أثناء الصلاة ولم يشعر بها فلا كراهة في الجهر بالذكر في المسجد حينئذ بل ألأولى ندبه لأن المساجد إنما تبنى للصلاة وذكر الله وتلاوة كتابه كما في قوله : (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه) وفي الحديث : (إنما بنيت هذه المساجد لذكر الله وتلاوة القرآن) وقد قيل (كنا نعرف إذا خرجوا من الصلاة بكثرة أصواتهم بذكر الله) يعني محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه أخرجه البخاري وفي التلخيص على الرسالة عند قوله وترك كل ما أحدثه المحدثون ما نصه : صح وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتمع مع أصحابه أدبار الصلوات الخمس لذكر الله ويرفعون أصواتهم بذلك فهو صريح في أنه ليس من المحدثات بل سنة محكمة دائمة انتهى وفي تحقيق المباني على الرسالة أيضا عند قوله ويختم المائة بلا إله إلا الله ما نصه : تنبيهات فذكرها إلى أن قال : السادس استحب جماعة رفع الصوت بالذكر محتجين بما في صحيح مسلم (كان صلى الله عليه وسلم إذا سلم من صلاته قال بصوته الأعلى لا إله إلا الله) وفي كتاب البحر المورود في المواثيق والعهود للإمام الشعراني ما نصه : أخذ علينا العهد أن نأمر إخواننا من طلبة العلم بتعظيم الذاكرين الله كثيرا وأن لا نمنعهم من رفع الصوت بالذكر في المسجد إلا لعذر شرعي فإن المساجد إنما بنيت بالأصالة ليذكر فيها

اسم الله فمن منع فيها ذلك بغير عذر فقد تعدى وظلم نفسه (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) فليخش فاعل ذلك من المقت لأنه لا ينبغي لمن يدعي محبة الله أن ينكر على من ذكر اسم حبيبه وقال الثعالبي وهذه الآية تتناول كل من منع مسجدا إلى يوم القيامة وقال صاحب ضياء التأويل وكذا كل موضع أعد للصلاة ولذا جمع مساجد لأن الحكم ورد عاما وإن كان السبب خاصا انتهى هذا يكفي في نفي كراهة الجهر بالذكر من لم يكن من أهل الإنكار والاعتراض وإلا فلا دواء له إلا الإعراض .

ثم لنذكر بعض أدلة استحباب الجهر بالذكر في الجملة من غير تخصيص بمسجد ولا غيره ففي السنهوري عند قول خليل إلا الصبح فبسدس الليل الأخير قال ابن عرفة رفع الصوت بالدعاء والذكر آخر الليل مع حسن نية قربة انتهى ومثله في المواق عند قول خليل وجهر ليلا إلا أنه زاد والجهر أفضل لمن كانت له نية في الجهر فخير الناس من انتفع به وانتفع هو بكلام الله وفي ذلك أيضا يسمع أذنيه ويوقظ قلبه لتدبر الكلام وتفهم المعاني ولا يكون ذلك إلا في الجهر ومن ذلك أنه يرجو يقظة نائم فيذكر الله فيكون هو له معاونا على البر والتقوى فيكون في العمل الواحد عشر نيات فيعطى العامل عشرة أجور وقال في العارضة لا شك أن العلانية بالقرآن وغيره أفضل إذا خلصت النية من الرياء قد كشف الله القناع بالبيان عن ذلك على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : (قال الله من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملإ ذكرته في ملإ خير من ملئه) انتهى كلام المواق واستدل ابن حجر في كتابه ضياء النهار في تفضيل الجهر بالذكر بقوله صلى الله عليه وسلم : (من قال لا إله إلا الله ومد بها صوته هدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر فقيل يا رسول الله فإن لم تكن له قال غفر لأبويه وجيرانه) وهذه رواية أنس بن مالك ورواية عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (من قال لا إله إلا الله ومدها بالتعظيم هدمت له أربعة آلاف ذنب من الكبائر قيل يا رسول الله فإن لم تكن له قال غفر لأبويه قيل فإن لم تكن لأبويه قال غفر لجيرانه) انتهى وفي شرح الخاتمة لليدالي فائدة : ما اعتاده الصوفية من عقد حلق الذكر والجهر به ورفع الصوت بالتهليل ليس بمكروه كما قاله السيوطي للأحاديث الواردة بالجهر إما تصريحا التزاما فمنها قوله صلى الله عليه وسلم : (جاءني جبريل فقال مر أصحابك أن يرفعوا أصواتهم بالتلبية) و (مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل يرفع صوته بالذكر فقيل يا رسول الله لعله مراء فقال صلى الله عليه وسلم لا ولكنه أواه) وأما ما نقل عن ابن مسعود أنه قال لقوم وجده يذكرون الله جميعا لقد جئتم ببدعة ظلما ولقد فقتم أصحاب محمد علما وأنه رأى قوما يهللون برفع الصوت في المسجد فقال ما أراكم إلا مبتدعين فأخرجهم من المسجد فهذا على تقدير ثبوته معارض بالأحاديث الثابتة المقدمة عليه عند التعارض ويحتمل أنه لم تبلغه أحاديث الترغيب في الجهر بالذكر أو أنه أنكر الهيئة ونحو ذلك وإلا فلا يصح إنكاره لهذا الوجه بعد صحة حديث وعن الإمام أحمد ما يناقض إنكار ابن مسعود لذلك فإنه قال حدثنا حسين بن محمد المسعودي عن عامر بن شقيق عن أبي وائل قال : هؤلاء الذين يزعمون أن عبد الله كان ينهى عن الذكر ما جالست عبد الله في مجلس قط إلا ذكر الله فيه . نقله السيوطي وقد ورد أيضا استحباب السر بالذكر لحديث : (خير الذكر الخفي) والجمع بينهما أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص النووي الجمع بينهما أن الإسرار أفضل حيث خاف الرياء أو تأذى به مصل أو نائم والجهر أفضل في غير ذلك لأن العمل فيه أكثر ولأن إفادته تتعدى ألى السامعين ويوقظ قلب الذاكر ويجمع همه إلى الفكر ويطرب سمعه إليه ويزيد في النشاط انتهى كلام اليدالي وقال العلامة عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي في نظمه رشد الغافل :

والجهر ندبه هو المعول من غير مانع كعجب يحصل
إذ فيه إيقاظ لقلب الغافل وكثرة الشغل وعلم الجاهل

وقال محنض بابا الديماني صاحب الميسر :

والله قد أمر بالإكثار من ذكره يا منكر الأذكار
ولم يخص وصفه أو نوعه فلا يكون منه شيء بدعه
إذ كل ما جاء بلا تخصيص كان على العموم في النصوص

وأنكروا الذكر والاجتماعا ... للذكر وهو جائز إجماعا
جرى على ذلك مذ أعصار ... شرقا وغربا عمل الأمصار
فوقع الإجماع بعد الخلف ... فيه فجاز اليوم دون خلف
صدوا عن الطريق من أرادها ... و أنكروا لعا لهم أورادها
فسبب الأوراد ذكر الله ... والنهي عنه منكر يا ناه
وربهم عن ذكر يصدون ... و لم يروا بحجة يردون
قد وزنوا أحكامهم بالطبع ... و لا يرون وزنها في الشرع
فكل ما لازم طبعهم فحق ... وما يخالفه فباطل زهق
على ما لم يخشى الذي قد صدا ... عن ذكر ربي كونه مرتدا
فعمر لا يأمن النفاقا ... من نفسه وقد سما وفاقا
أعاذنا الله بحسنى دائمة ... وعمنا كلا بحسن الخاتمة

وقال محمد فال بن محمذن بن أحمد بن العاقل الديماني :

ترادك الصوت بالتهليل تغبير ... شرواه في ذاك تسبيح وتكبير
ومذهب الشخ سحنون إجازته ... غبر إذا شئت فالتغبير تذكير

وفي القاموس المغبرة قوم يغبرون بذكر الله تعالى أي يهللون ويرددون الصوت بالقراءة وغيرها سموا بذلك لأنهم يرغبون الناس في الغابرة أي الباقية انتهى هذا كلام علماء الظاهر وأما أئمة الصوفية فلا خلاف بينهم في أفضلية الجهر بالذكر وجعلوا أفضليته على السر فمن ذلك قول صاحب شهية السماع ومنه أي الأدب الفرار من الإسرار في الذكر قال شارحها إن ذكر اللسان لا يؤثر في قلب السالك ولا يرقيه كترقية ذكر الجهر لصاحبه ومن كلامهم إذا ذكر المريد ربه بشدة وعزم مع الجهر طويت له مقامات الطريق بسرعة من غير بطء فربما قطع في ساعة ما لا يقطع صاحب السر في شهر أو سنة وفي وصية سيدي علي الخواص ينبغي للمريد أن يذكر بقوة تامة مع الجهر فإنه أشد تأثيرا في دفع الخواطر الرديئة والجهر مع الجماعة فإن الذكر مع الجماعة أكثر تأثيرا في رفع حجب النفس من ذكر الإنسان وحده وذلك أن الله تعالى شبه القلوب القاسية بالحجارة والحجر الصلد لا ينكسر إلا بالجماعة فكذلك القلوب لا تنكسر إلا بقوة جماعة على قلب واحد وأما من حيث الثواب فلكل ثواب ذكره وثواب سماعه لذكر غيره انتهى وأما حديث: (خير الذكر الخفي) وحديث : (يفضل الذكر الخفي على الذي تسمعه الحفظة بسبعين ضعفا) فمؤولان عندهم بأن معنى الخفاء في هذين الحديثين انغماس أثر الذكر في الذاكر بحيث يصل إلى تجاويف قلبه وروحه وسره بحيث لا تبقى للخواطر طريق تسلك معها إلى القلب قالوا فهذا الذكر الذي بهذه المثابة هو المراد بالذكر الخفي جهرا كان أو سرا لأن الحفظة لا يخفى عليهم ملفوظ ما لقوله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) ولو لم يكن المراد بالخفي ذلك المعنى ما واظب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على الجهر بالذكر أدبار الصلوات حتى يعرف خروجهم من الصلاة به وإلى هذا الذكر الخفي أشار الإمام الغزالي في جواهر القرآن بقوله : اعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن أفضل الأعمال الذكر ولكن له قشور ثلاث وإنما أفضل القشور أقربها إلى أرباب اللب من بعض ولها لب وراء القشور الثلاث وإنما فضل القشور لكونها طريقا إليه فالقشر الأعلى منها هو ذكر اللسان فقط والثاني ذكر القلب إذا كان يحتاج إلى مراقبة ليحضر معه ولو ترك لاسترسل في أودية الأفكار والثالث هو أن يسكن الذكر في القلب ويستولي عليه بحيث لا يحتاج إلى تكلف في صرفه عنه إلى غيره كما احتيج في الثاني إلى تكلف في إقراره فيه الرابع وهو اللباب المطلوب وذلك بأن لا يلتفت إلى الذكر ولا إلى القلب بل يستغرق المذكور جملة ومهما ظهر له في أثناء ذلك التفات إلى الذكر فذلك حجاب شاغل وهذه الحالة هي التي يعبر عنها العارفون بالفناء وذلك بأن يفنى عن نفسه حتى لا يحس بشيء من خواطر نفسه ويفنى عن الفناء أيضا وهذا يظن الفقيه الرسمي أنه طاقات غير معقولة وليس كذلك بل هذه كالحالة التي تكون لك بالإضافة إلى محبوبك من جاه أو مال أو معشوق فإنك تكون مستغرق القلب لشدة شهوة معشوقك أو لشدة الغضب

بالفكر في عدوك حتى لا يكون قلبك مستمعا لشيء أصلا فتخاطب ولا تفهم ويجتاز غيرك بين يديك ولا تراه وعيناك مفتوحتان ويتكلم فلا تسمع وما بأذنك صمم وأنت في الاستغراق غافل عن كل شيء وغافل عن الاستغراق أيضا لأن الملتفة إلى الاستغراق معرض عن المستغرق إلى أن قال فقد أهمناك ما أراد بالفناء فدع عنك الغيبة والتكذيب بما لم تحط به علما قال تعالى : (بل كذبوا بما لم يحيطوا به علما) وقال (وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم) ثم إن الفناء أي الاستغراق يكون أولا كالبرق الخاطف فقلما يثبت فإن دام وصار عادة راسخة عرج به إلى العالم الأعلى وطالع الوجود الحقيقي الأصفى وانطبع فيه نفس الملكوت وتجلى له قدس اللاهوت وأول ما يتمثل له من العالم جواهر الملائكة وأرواح الأنبياء والأولياء في قوالب صور جميلة تفضي إليه بواسطتها بعض الحقائق وذلك في البداية إلى أن تعلو درجته عن المثال ويكافح بصريح الحق في كل شيء فإذا نظر الزاهد العلم المجازي الذي هو كالظلال نظر إلى الخلق نظر الراحم لحرمانهم من مطالعة جمال حضرة القدس ويتعجب من انخداعهم بعالم الغرور فيكون حاضرا بشخصه غائبا بقليه متعجبا من حضورهم وهم من غيبته لأن حضورهم مع الأكوان غيبة عن المكون وحضوره هو مع المكون غيبة عن الأكوان وهذه لباب ثمرة الذكر الذي هو الذكر الخفي عند الصوفية وهو الذي لا تسمعه الحفظة وإنما مبدأه ذكر اللسان ثم الذكر القلب مكلفا ثم ذكر القلب طوعا ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر فما دام القلب يشعر بالذكر ويلتفت إليه فهو معرض عن الله وغير منفك عن شرك خفي حتى يصير مستغرقا للواجب الحق فذلك هو التوحيد الحقيقي والذي اشتمل على حقيقة الوصال ووصل صاحبه حضرة القدس .

فصـــل : وأما قولك هل الأسماء العجمية مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن كتب الأنبياء قبله وعلى أنها مروية عن غيره صلى الله عليه وسلم هل يجوز لنا العمل بما لم يرو عنه صلى الله عليه وسلم وما معنى قول مالك للذي سأله عن الاسم العجمي وما يدريك عله كفر وهل هذا في العجمي كله أو في الذي لا يعرف معناه لعجمته ؟ فالجواب والله الموفق للصواب أن الأسماء العجمية المستعملة عند المشايخ مروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح متصل ورواة عدول لا مطعن فيهم ولا مغمز وإنما لم تتواتر عند العوام وإن كانت متواترة عند الخواص لأنها من علم السر الذي لا تعلق له بالشريعة وقد خص به رسول الله صلى الله عليه وسلم أفرادا من الصحابة كعلي والحسنين وأبي هريرة رضي الله عنهم ورثه عن أولئك الأفراد من التابعين كزين العابدين والحسن البصري إلى هلم جرا وإلى هذا التخصيص بشير قوله صلى الله عليه وسلم آخر حديث الإسراء بعد المناجاة حيث يقول : (فعلمني ثلاثة علوم أما أحدها فأمرني بتبليغه والثاني خيرني فيه والثالث أخذ علي العهد بكتمانه) فقال مفسروه إن الذي أمره بتبليغه هو علم الشريعة وأما الذي خيره فيه فعلم الحقيقة والأسرار الذي لا يحمله حقيقة إلا الخواص ولذا خص به الأفراد وهو الذي كان عند الخضر عليه السلام وهو إلى الآن يحكم به قيل إن كل من يموت فجأة فإنما قتله الخضر عليه السلام لشيء اقتضى ذلك من علم الحقيقة كما قتل الغلام الذي في سورة الكهف وأما العلم الذي أخذ عليه العهد بكتمانه فهو علم التجليات الذاتية وحقائق الصفات وأسرار الربوبية ومعاني الألوهية لأن هذا العلم لا يمكن تعلمه بحيلة إذ لا تحويه العبارة ولا تكتنفه الإشارة كغيره من العلوم وإنما هو موهبة إلهية يختص الله تعالى بها من أهل لها انتهى وفي الحديث : (لم يفضلكم أبو بكر بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ولكنه شيء وقر في قلبه) من المعرفة وعلم الباطن وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه كان يقول : (أنتم تقولون أكثر أبو هريرة فوالله لقد أخذت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءي علم أما أحدهما فبثثته وأما الآخر فلو قلت منه كلمة واحدة لقطعتم هذا البلعوم قبل أن أتمها) قال البخاري البلعوم مجرى الطعام والشراب وعن ابن عباس رضي الله عنهما لو تكلمت في تفسير قوله تعالى : (الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن) لرجمتموني أو لقلتم إني كافر ومما كان يقول على زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهم :

إني لأكتم من علمي جواهـره ... كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتتنـــا
وقد تقدم في هذا أبو حســـن ... إلى الحسين وأوصى قبله الحسنـــا
يا رب جوهر علم لو أبوح بـه ... لقيل لي أنت ممن يعبد الوثنـــــا
ولاستحل رجال مسلمون دمي ... يرون أقبح ما يأتونه حسنـــــــا

فلما كان هذا هكذا فلنذكر السند في رواية الأسماء العجمية وأسرار الحروف قال جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين : إن الله تعالى علم آدم الأسماء بالقلم الذي في اللوح المحفوظ واختاره لسره المكنون وعلمه سبعين ألف باب من العلم وأنزل عليه الكلمات الوجودية والعدمية وعلمه ألف حرف وأنزل عليه عشر صحائف وكان عليه السلام يسبح في بحار الأسماء وهو أول من تكلم في علم الحروف والأسماء وقد كانت تتشكل له في قوالب نورانية عند إرادة تسمياتها وهي خاصية اختصه الله بها وأنزل عليه حروف المعجم في إحدى وعشرين ورقة وله كتاب سفر الخفيات وهو أول كتاب وجد في الدنيا في علم الحروف والأسماء وقد أخذ عنه ابنه شئث كتاب الملكوت الذي وصفه آدم عليه السلام وهو ثاني كتاب في الدنيا وجد وله فيها أيضا كتاب سفر الخفيات وهو ثالث كتاب وجد في الدنيا ومن هذه الثلاثة تفرعت سائر العلوم الحرفية والاسمية والعددية وقال ابن عباس رضي الله عنهما علم الله آدم الاسم الأعظم الذي دانت له الملوك وقد نطق آدم بسبع مائة ألف لغة وأفضلها العربية ثم ورث علم الحروف عنه ابنه شئث عليه السلام نبي مرسل أنزل عليه خمسون صحيفة وهو وصي آدم وولي عهده وله سفر جليل الشأن في علم الحروف والأسماء وهو رابع كتاب فيها ثم ورث عنه ابنه أنوش ثم قينان وإليه ينسب العلم القيناني ثم مهلابيل ثم يارود في زمانه عبدت الأصنام ثم إدريس عليه السلام وهو نبي مرسل وإليه انتهت الرئاسة في العلوم الحرفية والأسرار الحكمية واللطائف العددية والأوراد الفلكية وهو أول من خط بالقلم وخاط الثياب وخط في الرمل وبه أظهر الله نبوءته وقد ازدحم على بابه الحكماء واقتبس من نور مشكاته العلماء وهو أول من أظهر الموازين والمكاييل وقد ألف كتاب الأسرار وذخائر الأنوار في هذا العلم وهو خامس كتاب وجد فيه ثم ورثه عنه الهرامسة وهو أربعون رجلا ثم بنو شلخ ثم لامك ثم نوح عليه السلام وله فيه سفر جليل القدر وهو سادس كتاب وجد في الدنيا وألف كتابا جليل القدر وهو سابع كتاب وجد فيه ذلك العلم ثم فالق ثم يفطر ثم صالح عليه السلام ثم الخليل إبراهيم عليه السلام وهو أول من تكلم في علوم الأوفاق وقيل أنه وضع مربعة مائة في مائة في أساس مكة وله في علوم الأسرار والحروف والأوفاق سفر عظيم القدر جليل الشأن وهو ثامن كتاب وجد فيها ثم إسماعيل ثم إسحاق عليه السلام ثم يعقوب عليه السلام وهو أول من وضع القرطاس ثم موسى عليه السلام وقد علمه الله تعالى علم الكيمياء ثم يوشع ثم داوود عليه السلام ثم عيسى عليه السلام ثم سيد الوجود محمد صلى الله عليه وسلم ثم ورثه عنه باب مدينة العلم علي ابن أبي طالب رضي الله عنه وقد صنف كتاب الحبر الجامع في حقائق أسماء وأسرار الحروف والأوفاق وفيه ما جرى للأولين والآخرين ثم ورثه عنه الحسنان سبطاه صلى الله عليه وسلم ثم الإمام زين العابدين ثم الإمام ابنه محمد الباقر ثم الإمام ابنه جعفر الصادق وصنف الخافية في علم الأسرار والحروف ولم يزل هذا العلم متوارثا إلى يومنا انتهى من كتاب شرح الاسم الأعظم للشيخ سيد المختار قد أشار سيدنا علي رضي الله عنه إلى أن هذا العلم لا يفشى بين العام بقوله إن التوراة كتاب في زمن موسى عليه السلام مشروحة في أربعين وقرا ولو أذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في البسملة لشرحتها على ثمانين وقرا انتهى ففهم من هذا أنه استأذنه ولم يأذن له وأن الذي يحتاج للإذن إنما هو علم الحقيقة والأسرار وأما علم الشريعة فقد أمرهم بتبليغه وإفشائه لقوله في حجة الوداع : (ليبلغ الحاضر الغائب) وبقوله : (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها) انتهى فبان من هذا أن الأسماء العجمية المتداولة عند المشايخ إنما هي مأخوذة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنها ما اختصه الله تعالى به ومنها ما اتصل إليه مما كان للأنبياء لأن الله تعالى كمل لهم ما عندهم وزاده .

وأما قولك وعلى أنها مأخوذة من غير نبينا صلى الله عليه وسلم هل يجوز لنا الدعاء والاستعمال لما لم يؤخذ عنه صلى الله عليه وسلم فالجواب والله الموفق للصواب أن مشهور المذهب كما في المنتقى للباجي أن شرع من قبلنا شرع لنا والمشهور عند الشافعية أنه ليس شرعا لناوهو اختيار ابن السبكي ومحل الخلاف في ما ثبت أنه شرع للأنبياء قبلنا ولم نؤمر بالاقتداء بهم فيه مثل (ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم) هل يستدل به على جواز الضمان والمشهور عندنا معشر المالكية الجواز وأما ما أمرنا به في شرعنا فذلك شرع لنا اتفاقا كمدلول قوله تعالى : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس) ولقوله صلى الله عليه وسلم لأنس : (كتاب الله القصاص) وأما ما لم يعلم أنه شرع للأنبياء إلا بقول أممهم فليس

شرعا لنا اتفاقا لأنهم بدلوا وغيروا وهذا كله بعد نزول الوحي وأما ما قبله فقد قال السبكي اختلف هل كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم متعبد قبل النبوءة بشرع اختلف المثبت فقيل نوح وإبراهيم وموسى وعيسى انتهى وإلى هذا أشار صاحب مراق السعود بقوله :

ولم يكن مكلفا بشرعـــــــــه صلى عليه الله قبل الوضــع
وهو والأمة بعد كلفـــــــــا إلا إذا التكليف بالنص انتفى
والخلف في المثبت في ما شرعا ولم يكن داع إليه سمعـــــا

والحاصل أن من وجد اسما من أسماء الله تعالى تحقق أنه لم يؤخذ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مع تحققه أنه ثابت عن الأنبياء قبله جرى فيه الخلاف فإن شاء أخذه اقتداء بالإمام مالك وإن شاء تركه أخذا بمذهب الشافعي .

تنبيه : اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم : (إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة) لا يقتضي حصر الأسماء الحسنى في هذا العدد بل معناه أن إحصاء هذا العدد من الأسماء الحسنى سبب لدخول الجنة فلله غيرها من الأسماء ولدخول الجنة أسباب أخر غير حفظ هذا العدد بدليل قوله صلى الله عليه وسلم في بعض أدعيته : (أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك) وفي الخبر (إن لله أف اسم ثلاث مائة في التوراة وثلاث مائة في الإنجيل وثلاث مائة في الزبور وتسع وتسعون في القرآن وواحد في صحف إبراهيم فاندرجت التسع مائة في التسع والتسعين اندرجت السع والتسعون في الواحد اندراج النخلة في النواة وأول الأسماء في الكتب كلها الله) ومثال قوله صلى الله عليه وسلم : (إن لله تسعة وتسعين اسما ما لو قيل إن للملك تسعة وتسعين فارسا أعدها للقتال لا يقاويها أحد إلا غلبته فلا يقتضي أن أولئك الفرسان هم منتهى عدد جند الملك فله جنود غيرهم) انتهى من لطائف القدس .

تتمة : اعلم أن المشهور في أسمائه تعالى أنها توقيفية لا يعتمد فيها إلا على النقل ولا مدخل للقياس فيها فلا يقال الضارب الأمثال على أنه اسم له تعالى كالخالق والرازق وقيل يقاس كل اسم دل على الكمال من غير إيهام كالمريد والمتكلم والمعبود والنعم ونحوها وأما الموهم فلا خلاف في منعه كالفقيه والعاقل واللبيب وإلى المشهور أشار ابن بونا في وسيلته بقوله :

وما روي في الشرع منها يؤخذ ومقتضى القياس عنها ينبذ

وقد أضفت إلى هذا البيت بيتين في مقابل المشهور فـقلت :

وقيل قد يقاس ما اقتضى الكمال مثل المريد دون إيهام يقـــال
أما الذي أوهم مثل العاقـــــل في منعه اتفق كل عاقـــــل

وأما قول مالك حين سئل عن الاسم الأعجمي فقال وما يدريك لعله كفر فاعلم أن الإمام مالك مجتهد أمين على الأمة وقد كثرت في زمنه أهل الدعاوي والضلال والأسحار والشعوذات وقد كان السحرة يؤلفون أسماء الشياطين ورؤساء الجن ويتقربون إليهم في مقاصدهم الفاسدة ويلبسون ذلك بخلطه بأدعية من كلام العرب وبآيات من كتاب الله ليوهموا أن تلك الأسماء من أسماء الله تعالى جل وعز فخاف مالك أن تضل الأمة بتلك الشعوذات فسد ذريعة ذلك لأن مذهبه سد الذرائع والذريعة الوسيلة إلى الشيء وعنى سدها حسم مادة وسائل الفساد فمتى كان الفعل السالم من المفسدة منع من ذلك الفعل واعلم أن سد الذرائع ثلاثة أقسام أحدها معتبر إجماعا وهو ما كان أقرب فيه الفساد كحفر الآبار في طرق المسلمين وإلقاء السم في أطعمتهم وسب الأصنام عند من يعلم أنه يسب الله عز وجل وثانيها ملغى إجماعا وهو ما كان الفساد فيه أبعد من المصلحة وذلك كجواز غرس الكرم الذي يصنع الخمر من عنبه وكتجاور البيوت مع أنه قد

يكون وسيلة إلى الزنا والثالث مختلف فيه كبيوع الآجال اعتبرها مالك ولم يعتبرها غيره انتهى فإذا تقرر هذا علمت أن الإمام مالك أجل قدرا وأطول باعا في العلم من أن يكون جاهلا للأسماء العجمية كلها حتى ينفيها من أصلها وينسبها للكفر مع أن منها ما هو ثابت في كتاب الله نحو إيل ولذا أضيف إليه أسماء الملائكة نحو جبرائيل وميكائيل فجبر وميك في السريانية بمعنى عبد وإيل الله وكذا رؤوس السور (الم – المص) المشهور أسماء من أسماء الله تعالى ومنها ما هو مخرج من تكعيب اسم الجلالة نحو أهم سقك حلع يص قال أئمة هذا العلم إن اسم الجلالة الذي هو الله أجراه إفلاطون الحكيم على التكعيب فأخذ الاسم الباطن الذي هو فوق الاسم الشريف فكعبه إلى سبعة فأخذ من كل تربيع خارج حرفا بطبعه حتى استخرج من تلك الترابيع أحد عشر حرفا لكل حرف اسم مأخوذ من قوته واسم مأخوذ من ظاهر وهو قد أخذه بالتلقين على الهرامسة وهم وقعوا عليه مكتوبا على فخارة مما كتب إدريس عليه السلام وقيل إن هرمس الهرامسة استنطق الأعداد من تربيع تكعيب اسم الجلالة حروفا وألفها تأليفا في النطق دالا على أسماء عربية بمطابقها في اللغة اليونانية فمعنى أهم الله الدائم ومعنى سقك الحي القيوم ومعنى حلع ذو الجلال ومعنى يص ذو الإكرام فهذا الاسم وإن عدل به إلى ما هو أتم في المعنى وأجمع إذ الخلاف في الاسم الأعظم إنما يؤول إلى اعتبار كون الاسم الأعظم هو اسم الجلالة بانفراده أو بضميمة غيره إليه وهذا الاسم محصل قوة الاسم الشريف مع ضميمة أسماء أخر إليه في كل منها أنه الاسم الأعظم انتهى من شرح الاسم الأعظم للخليفة ومنها ما هو مؤلف من عدة أسماء وآيات فيكون اسما واحدا نحو ءآح مهراش فيدعو بذلك اللفظ وحده قاصد الدعاء بسر تلك الأسماء وتلك الآيات فأما ءآح فالهمزة من الله والألف من الرحمان والحاء من لرحيم وأما مهراش فالميم من ملك يوم الدين والهاء من هو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم إلى العظيم والشين من شهد الله أنه لا إله إلا هو إلى الحكيم وسبب وضعهم لهذا النوع خفة النطق والاختصار وإخفاء الأسرار واقتداء بما ورد في قوله تعالى : (كهيعص) أن الكاف من كبير وكريم والهاء من هاد والياء من رحيم والعين من عليم وعظيم والصاد من صادق ومعناه أنه كاف لخلقه هاد لعباده يده فوق أيديهم عالم ببريته صادق في وعده قاله في الذهب ومنها ما هو منقول عن أئمة هذا العلم نحو أهوال أبوال بمعنى الحي القيوم واعلم أنه ما من حرف إلا وفي ضمنه اسم أو أسماء فالأسماء في طي الحروف والصفات في طي الأسماء والأفعال في طي الصفات والكائنات منبجسة خلال ذلك ومن أراد استقصاء الكلام على الأسماء العجمية فليطالع الشروح على القصيدة التي مطلعها :

إلاهي لقد أقسمت باسمك داعيا بآج مؤوج جلـــــــــها فتجلجلت
بصمصم طمطم بحرف مطلسم بمهراش مهراش به النار أخمدت

وقد اختلف أهل المذهب في قول مالك وما يدريك أنه كفر ففي النفراوي عند قول الرسالة ولا بأس بالرقى بكتاب الله وبالكلام الطيب ما نصه : المراد بالطيب ما كان عربية مفهوم المعنى كالمشتمل على ذكر الله ورسوله أو بعض الصالحين وأما ما لا يفهم معناه فلا تجوز الرقية به لأن مالكا لما سئل عن الأسماء العجمية قال وما يدريك أنها كفر ومقتضى ذلك أن ما جهل معناه لا تجوز الرقية به ولا شك أن ما تحقق النفع به لا يكون كفرا ومن ذلك ما يعالج به المربوط والمصروع وإخراج الجان وإزالة النزيف ولو حديدا كخاتم سليمان يكتب عليه بعض الأسماء وتحمل كراهة مالك على ما لم يتحقق النفع به فذلك جائز انتهى من بناني وفي فرائد الفوائد لليدالي قال ابن رشد والعز وجماعة لا تجوز الرقى بالاسم العجمي الذي لا يعرف معناه وعن ابن المسيب ما يقتضي جواز ذلك إن تكرر النفع به لحديث : (من استطاع منكم أن ينفع أخاه فليفعل) انتهى كلام اليدالي وقال الشيخ سيدي محمد التواتي في كتابه الفتح المغتبط قال سألت سيدي أبا العباس أحمد بابا التيمبوكتي فقلت إننا نجد في بعض الكتب أسماء لا نعرف معناها بالعبرانية ولا غيرها فهل يجوز لأحد أن يقرأها وهو مؤمن صحيح العقيدة وعلى تقدير أن لو كان معناه مخالفا لعقيدته لا يتبعه ولا يرضاه فأجاب بأن قال : إن كان في كتاب من هو قدوة كالشيخ السوسي فإنه يجوز انتهى فتحصل من هذا أن في الاسم العجمي الذي لا يعرف معناه ثلاثة أقوال قول بالكراهة وهو لمالك لئلا يكون مدلوله كفرا كما كره استعمال الشبه وقول بالجواز إن تكرر النفع به وهو لابن عرفة وقول بالجواز إن نقل عن من يقتدى به وهو لأحمد بابا التيمبوكتي واعلم أن الحزم في الأسماء العجمية

أن لا يستعملها إلا من أخذها عن شيخ مشافهة عن شيخ عالم تقي ذي بصيرة نافذة تميز بين الحق والباطل وله في الأسماء العجمية سند متصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يكون قد أخذها إلهاما بواسطة الإلقاء من روح زكية لأنهم قد يأخذون الأسرار عن الخضر عليه السلام وأضرابه وقد يكون باستعمال الطاعات والاجتهاد في الرياضة وصرف الهمة حتى يخبر به أو يفاض عليه من أنوار الله تعالى ما يكون هو الاسم الأعظم في حقه وقد سئل بعض الصالحين ممن كان ذا حظ وافر من العلم فقيل له ممن أخذت علوم الأسرار قال عن قوله تعالى : (واتقوا الله ويعلمكم الله) فمن لم يجد شيخا حيا ممن تلك صفته فليأخذ من كتاب معتمد صحيح النسبة إلى شيخ مشهور العدالة والعلم وأما أخذ الأسماء العجمية من غير هذين النوعين فهو محل النهي والغرر والغرور الذي حذر منه أهل الحزم سلفا وخلفا واعلم أن الأسرار لا تدرك بشيء من القياس ولا تنال بإعمال القرائح والحواس كما يدرك غيرها من العلوم المتعلق بالرسوم وإنما تدرك بالعناية الإلهية من خزائن الغيب اللدني من طريق الوحي الروحاني والكشف الصمداني أو نوع من المخاطبات الملكية والمطاوعات لنفس قد تزكت من الأحكام العادية والحظوظ البشرية والشهوات النفسية والرعونات الحسية فمن دخل إليها من أهل هذا المذهب والتمسها من غير تلك الرحاب فقد ذهب إلى غير مذهب وطلب طلبته من غير مطلب والله تعالى يتحفنا وإياك بتحفه الفيضانية وينفحنا وإياك بنفحاته اللدنية آمين آمين .

فصل : وأما أبيات ابن البناء :

عار على من لم يرض علوما	ويعلم الموجود والمعدومـــــا
ولم يكن في بذله فقيهـــــا	وسائر الأحكام لا يدريهـــــا
ولم يكن أحكم علم الحـــــال	ولا درى مقاصد الرجـــــال
والحد والأصول واللسانـــا	والذكر والحديث والبرهانـــا
ولم ينزه صفة المعبـــــود	أو يدر كيف رتبة الموجـــود
والعقل والنفس معا والـروح	أن يتعاطى رتبة الشيـــــوخ

فاعلم أن مقصود هذه الأبيات ذكر صفات شيخ التربية الذي يجوز الاعتماد عليه فيها وجعله وسيلة بينك وبين الله عز وجل في المعاملات فقوله عار مبتدأ وخبره أن يتعاطى والتعاطي التناول أو تناول ما لا يلحق والتنازع في الأخذ والقيام على أطراف أصابع الرجلين مع رفع اليدين إلى الشيء ومنه (فتعاطى فعقر) وركوب الأمر كالتعاطي أو التعاطي في الرفعة والتعطي في القبيح قاله في القاموس وقوله يرض بضم الياء التحتية وكسر الراء مضارع أراض الرباعي ففي القاموس وأراض صب اللبن على اللبن وروى بنقع وشرب علنا بعد نهل والقوم أرواهم ومنه فدعا بإناء يريض الرهط انتهى ويحتمل أنه مضارع من راض الدابة ثلاثيا بمعنى أدبها وذللها فهو بفتح الياء وضم الراء والمعنى أنه يقبح التصدي للمشيخة والتطاول لها لمن يبلغ الغاية في العلوم وخلط بعضها ببعض وشرب منها علنا بعد نهل حتى نقع غلته وعلم غيره حتى صاروا كذلك وذللها بالدرس والتعلم والتعليم حتى أزال مشكلاتها واستخرج عويصاتها وقيد شواردها واصطاد أوابدها وقوله ويعلم الموجود والمعدوما يعني بالموجود والله أعلم الفروع والأحكام المدونة قبل وبالمعدوم الأحكام التي لم تستخرج بعد وإنما يكون عالما بها من كانت له ملكة وفطنة يقتدر بواستطها على استخراج الفروع من الأصول ولذا قال مالك العلم نور يجعله الله حيث شاء وليس بكثرة الرواية وهذه إشارة إلى صفة المجتهد فلنذكر طرفا من صفاته وشروطه

فـــاعلم : أن المجتهد وزنه مفتعل من الجهد أي بذل الوسع ومراتبه ثلاث الأول المجتهد المطلق وهو المكلف العدل المعد لأن يبذل طاقته في تحصيل معرفة كيفية حكم الله في الفروع الواردة في نازلة من وجوب أو ندب أو إباحة أو كراهة أو تحريم وإنما يكون كذلك بشدة فهمه الغريزي مع تحصيله للعلوم الشرعية التي يصح أن يبنى عليه شيء منها وهي النحو الشامل لتصريف ولغة العرب من حقيقة وشريعة وعرفية وعلم البلاغة من معان وبيان وعلم ميزان المنطق الذي هو المعرفات من حد ورسم وغيرها ويعرف مواضع الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة ولا يشترط فيه حفظ نصوصها وإن كان حفظها أكمل له بل يكفيه في الأحاديث أن يكون عنده من كتبها ما إذا راجعه ولم يجد فيه حكم النازلة ظن أنه لا نص

فيها ويعرف أيضا أنه يجب عليه الرجوع إلى الدليل العقلي إن لم يجد في النازلة دليلا سمعيا والمراد بالدليل العقلي البراءة الأصلية وسميت بها لأنها مأخوذة من العقل ولا يشترط فيه التبحر في هذه العلوم بل إذا وصل إلى الرتبة الوسطى كفاه ذلك إلا في اللغة فلا بد فيها من الزيادة على الوسط حتى لا يخفى عليه المستعمل منها غالبا وأما الغريب الوحشي فلا تشترط معرفته كقول أعرابي مالكم تكأكأتم علي كتكأكئكم على ذي جنة افرنقعوا عني أي تجمعتم علي تجمعكم على مجنون تفرقوا عني وكم يقع في بعض الأراجيز وتوقف عن تفسير بعضها صاحب القاموس فقل : جحلنجع في قول أبي الهميسع

إن تمنعي صوبك صوب المدمع يجري على الخد كصيب الثعثع
من طمحه صبيرها حجلنجع

ذكروه ولم يفسروه وقالوا كان أبو الهميسع من أعراب مدين وكنا لا نفهم كلامه .
وجميع ما تقدم شروط صحة الاجتهاد وأما شروط كماله فهو كونه يعلم الإجماعيات لئلا يخرقها باجتهاده وأن يعلم شرط خبر التواتر والآحاد وصحة الخبر وضعفه ويعرف الناسخ والمنسوخ كما يأتي تفصيل ذلك إنشاء الله ويعلم أسباب النزول في الكتاب والسنة ليتقوى بذلك على معرفة معانيهما كما قيل معرفة الأسباب معينة على التأويل ويعرف أحوال الصحابة رضوان الله عليهم وأحوال الرواة من رد وقبول وزيادة في الثقة والعلم والورع على غيره ويكون الرد بكذب الراوي وتهمته به أو فحش غلطه أو غفلته أو فسقه أو مخالفته للثقات أو كونه مجهولا أو ذا بدعة أو سوء حفظه وأما أحوال الصحابة فمعرفة أحكامهم من فتاويهم وزيادة في الفقه والورع والسن فتقدم الفتوى لعمومها لأن الحكم قد يخص ويقدم الزائد في ما ذكر على غيره فإن قيل كيف يطلع على أحوال الصحابة والرواة والإجماعيات ؟ فالجواب أن ذلك مدون في كتب القدماء جازاهم الله عنا خيرا أما أحوال الصحابة فيرجع فيها إلى الاستيعاب لابن عبد البر والإصابة لابن حجر ونحوهما وأما أحوال الرواة فيرجع فيها إلى المدارك لعياض والميزان للذهبي ولسان الميزان لابن حجر وأما الإجماعيات فيرجع فيها إلى إجماعيات ابن المنذر وابن القطان والميزان للشعراني وبداية المجتهد للحفيد ابن رشد ورحمة الأمة للصفدي وفي أسباب النزول للباب النقول للسيوطي ونحو ذلك ولا يشترط في المجتهد معرفته للفروع الفقهية التي استخرجها هو أو غيره من المجتهدين إلى أن معرفتها أكمل له في حاله ولا ينافي هذا قولهم الفقيه هو العالم بجميع الأحكام لأن معناه الصالح لعلمها ولذا كان مالك وغيره من الأئمة يقول لا أدري في كثير من المسائل قال العلوي :

والكل من أهل المناحي الأربعه يقول لا أدري فكن متبعه

وأما الثاني فهو المجتهد المقيد وهو الملتزم مراعاة مذهب معين في نظره في نصوص الشارع فلا يتعدى إلى غير نصوص إمامه وقد عابوا على اللخمي تخريجه على قواعد غير الإمام مالك حتى قال ابن البخاري :

لقد هتكت قلبي سهام جفونها كما مزق اللخمي مذهب مالك

وهذا المقيد قسمان الأول مجتهد المذهب وهو من له قدرة على تخريج الأحكام من أصول إمامه كأن يقيس ما سكت عنه على ما نص عليه لوجود معنى ما نص عليه في ما سكت عنه سواء نص إمامه أو استنبطه هو من كلامه وقد يستنبط من نصوص الشارع لكن يتقيد في استنباطه منها بالجري على طريق إمامه في الاستدلال في مراعاة قواعده وشروطه والثاني مجتهد الفتيا وهو قاصر عن الأول إلا أن له قدرة على تخريج قول من أقوال إمامه على قول آخر أطلقهما إمامه بأن لم يذكر ترجيح أحدهما على الآخر أو أطلقهما أحد أصحاب إمامه كذلك وهناك رتبة رابعة ليست من الاجتهاد في شيء لكن تقبل فتوى صاحبها بشرط أن يقوم بحفظ المذهب وفهمه في الواضحات والمشكلات ومعرفة عامه وخاصه ومقيده إلا أن عند ضعفا في تقرير أدلته وأقيسته لجهله بعلم الوصول فهذا يعتمد نقله وفتواه في ما يحكيه من مسطورات مذهبه

مستوفى بأن يحفظ ما فيه من الروايات والأقوال وأما ما لم يستوفه فلا يقبل ولا يقتدى فيه به انتهى من نشر البنود وقول ابن البناء ولم يكن في بذله فقيها وسائر الأحكام لا يدريها هذا قريب من تتميم البيت قبله لأن الفقيه هو المجتهد وقد تقدم أنه يشترط في المجتهد أن يعرف سائر الأحكام إما صلاحية فقط أو صلاحية ورواية معا وقوله في بذله أي إعطائه يعني وأخذه والمعنى أنه يكون فقيها في جميع تصرفاته .

تنبيه : الهاء الأصلية تكون رويا مطلقا وكذا الزائدة إن سبقها سكون حي أو ميت نحو عنها وفيها وإلى هذا أشرت بـــقولي :

ها الزائد ان سبقها مسكن فجعلها حرف الروي ممكن
وإن تكن أصليـــة فحققا ذاك لها في كل قول مطلقـا

وأما الزائد الذي سبقه متحرك فيمتنع مطلقا سواء كان للضمير نحو بها وله أو للتأنيث كقائمة وضاربة أو للمصدر كتزكية وتلبية أو للاسم كقبلة ورحمة أو للسكت نحو فاقتده وإلى هذا أشار ابن عبدم الديماني بقوله :

ومدة الروي لا تكـــــون رويا البتة و التنويـــــن
كذاك والهاء الذي قد سبقه محرك كمثل ذا وأطلقــه

وقد تعامل الأصلية معاملة الزائدة في كونها لا تكون رويا وإن اجتمعا في قافية وإليه إشارة ***** السنغاني بقوله :

والهاء الاصلـــي كثيرا وردا مثل المزيد نحو ما قد أنشدا
أعطيت فيها طائعا أو كارها حذيفة غلبـــاء في جوارها

فالراء في قوله كارها وجوارها هي الروي والهاء فيهما وصل وأما قول ابن البناء فقيها ويدريها فيه ما هي حرف الروي لأن الأولى أصلية والثانية قبلها السكون وقوله ولم يكن أحكم علم الحال الإحكام إتقان الأمر ومنعه من الفساد وعلم الحال هو العلوم التي لا تدرك إلا بالكشف والذوق قال الشعراني في كتاب الدرر العلوم ثلاثة علم العقل وعلم الحال وعلم الأحوال وعلم الأسرار فعلم العقل كل علم ضروري بديهي أو حاصل من نظر في دليل بشرط العثور على وجه ذلك الدليل وعلامته أنه كلما بسطت عبارته حس وفهم وانجلى معناه وعذب عند السامع الفاهم وأما علم الأحوال فلا سبيل إليه إلا بالذوق ولا يقدر عاقل على وجدانه ومعرفته بدليل البتة وذلك كالعلم بحلاوة العسل ولذة الجماع ومرارة الصبر ونحو ذلك وهو كتوسط بين علم الأسرار وعلم العقل أقرب وأكثر من يؤمن به أهل التجارب فلا يستلذه إذا صدر من غير معصوم إلا أصحاب الأذواق السليمة والفرق بينه وبين العلم المكتسب وقوله ولم يكن أحكم علم الحال الإحكام إتقان الأمر ومنعه من الفساد وعلم الحال هو العلوم التي لا تدرك إلا بالكشف والذوق قال الشعراني في كتاب الدرر العلوم ثلاثة علم العقل وعلم الحال وعلم الأحوال وعلم الأسرار فعلم العقل كل علم ضروري بديهي أو حاصل من نظر في دليل بشرط العثور على وجه ذلك الدليل وعلامته أنه كلما بسطت عبارته حس وفهم وانجلى معناه وعذب عند السامع الفاهم وأما علم الأحوال فلا سبيل إليه إلا بالذوق ولا يقدر عاقل على وجدانه ومعرفته بدليل البتة وذلك كالعلم بحلاوة العسل ولذة الجماع ومرارة الصبر ونحو ذلك وهو كتوسط بين علم الأسرار وعلم العقل أقرب وأكثر من يؤمن به أهل التجارب فلا يستلذه إذا صدر من غير معصوم إلا أصحاب الأذواق السليمة والفرق بينه وبين العلم المكتسب دخول المكتسب بميزان العقل والوهبي تمجه العقول من حيث أفكارها ولا تقبله وأما علم الأسرار فهو العلم الذي فوق طور العقل ولذلك يتسارع إليه الإنكار وهو من طريق الإلهام الذي يختص به النبي والولي وعلامته أنه إذا أخذ بالعبارة ازداد بعده عن الأفكار وربما رمت به العقول الضعيفة المتعصبة التي لم توف النظر والبحث حقهما انتهى كلام الشعراني وقال الغزالي في الإحياء وأما علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من الصفات المذمومة وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يعرف أسماءها ويتوهم لها معاني مجملة غير متضحة وذلك كالمتشابه من صفاته وأفعاله جل وعز كالوجه واليد والضحك والاستواء ووضع اليد والكلام ونحوها وكالعرش والكرسي واللوح والقلم والجنة والنار والصراط والميزان والحوض ونحو ذلك فيتضح له بذلك النور ما هو الحق في جميع ذلك حتى تحصل له المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه وبصفاته وأفعاله وبحكمه في خلقه فيتضح له جميع ذلك اتضاحا يجري مجرى العيان الذي لا يشك فيه وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكم أصداؤها وخبث

بقاذورات الدنيا صفاؤها وإنما تسقيلها وتطهيرها بالكف عن الشهوات والاقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في جميع أحوالهم فبقدر التطهير لتجلي مرآة القلب تتجلى فيه تلك الحقائق ولا سبيل إلى ذلك إلا بالرياضة وهذا العلم هو الذي لا يتحدث به إلا مع أهله بطريق الإشارة وهو العلم الخفي الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى فلا تحقروا عالما آتاه الله تعالى علما منه فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه) انتهى كلام الغزالي قلت وسبب إنكار المنكرين لهذه العلوم اعتقادهم أن ليس فوق طور العقل طور فأداهم ذلك إلى إنكار كل ما لا تسعه دائرة عقولهم حتى تعدوا إلى تحكيم العقل على الله عز وجل بأن اعتقدوا أن الله تعالى لا يخلق إلا ما يحتمله العقل وقد غفلوا عن كون العقل حادثا مخلوقا والله تعالى (هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير) فلنذكر ضرب مثال يرتقي به الموفق عن هذا

الاعتقاد الفاسد وهو أن تعلم أن العقل معنى مخلوق كأنه دائرة هكذا ○ فيمكن أن الله تعالى يخلق ما لا تسعه هذه الدائرة قال تعالى : (ويخلق ما لا تعلمون) ومن المعلوم أن إدراك الرضيع يقصر عن إدراك الفطيم والفطيم عن المراهق والمراهق عن البالغ والبالغ عن الكهل فكما يقصر الرضيع عن إدراك البالغ كذلك يقصر إدراك المحجوب عن إدراك الولي وكذلك يقصر إدراك الولي عن إدراك النبي والنبي عن الرسول وكما يتفاوت إدراك العقلاء كذلك تتفاوت مراتب الأولياء ومراتب الرسل قال تعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) وكل مرتبة من هذه المراتب تسمى طورا قال تعالى : (وقد خلقكم أطوارا) فافهم ولا تنكر تندم.

قوله ولا درى مقاصد الرجال الدراية المعرفة أو الضرب من الحيلة يعني أنه يشترط بالشيخ أن يكون عارفا بمقاصد العقلاء أي أئمة الطريق ومقاصدهم معرفة مدلولات ألفاظهم في اصطلاحاتهم والثاني أراد معرفة نياتهم في معاملاتهم أما معرفة اصطلاحاتهم فها أنا أذكر منها على سبيل الاختصار فمنها في الترقي بالقلب ما يلوح لهم من أنوار الحقائق وشموس المعارف ومما ينفح به الحق سبحانه على قلوبهم في كل حين فكلما أظلمت عليهم سماء القلوب بسحائب الحظوظ والغيوب سمحت لهم منها لوائح الكشف وتلألأت لوامع القرب فهم في زمان سيرهم يرقبون فجأة اللوامع كما قال :

يا أيها البرق الذي يلمـــع من أي أكناف الحمى تسطع

فـــاللوائح كالبرق واللوامع أظهر من اللوائح وليس بتلك السرعة فقد تبقى وقتين وثلاثة فإذا لمع نوره قطعك عنك وجمعك به والطوالع والطوارق والشوارق حاصلها أنوار تتفاوت بحسب القوة والضعف وسرعة الزوال وتأخر الانتقال فالنسبة بينها التشكك في الاصطلاح المنطقي ومنها ما إذا فات لم يبق له أثر كالشوارق إذا أفلت كان الليل دائما ومنها ما يبقى أثره فإن زال رقمه بقي ألمه وإن عدمت أنواره بقيت آثاره فصاحبه بعد سكون سبحاته يعيش في ضياء بركاته أن يلوح ثانيها وهي علامات دالة على صدق الطريق واستقامة السلوك ولا تدرك إلى بالذوق قال الجنيد رضي الله عنه لولا العلامات لادعى كل أناس سلوك الطريق ومنها الوقت ويريدون به ما كان غالبا على الإنسان في الحال ويقولون الصوفي ابن وقته وهو عندهم عن ثلاثة أوجه أحدها طيب الوقت وانشراحه ومنه قولهم فلان طاب وقته وهو صاحب وقت الثاني محل اجتماعهم للسماع ومنه قولهم صنعنا وقتا وعندنا صاحب وقت الثالث الزمان الذي لا يقبل غير ما ظهر فيه من تجريد وأسباب وعجز واكتساب لضيقه عن قبول الجمع ومنه قولهم فلان يحكم الوقت أي أنه لا يختار غير ما أقيم فيه ومن كلامهم الوقت كالسيف أي كما أن السيف قاطع فالوقت بما يقضيه الله تعالى ويجريه كذلك وقيل السيف لين قاطع حده فمن لاينه سلم ومن خاشنه اصطلم كذلك الوقت من استسلم لحكمه نجا واهتدى ومن عارضه بترك الرضا انتكس وتردى ومن ساعد الوقت له وقت ومن ناكره فالوقت له مقت وفي الحكم العطائية ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر في الوقت غير ما أراد الله أن يظهره فيه .

فائدة : أهل القلوب في أوقاتهم على أربعة أقسام الأول قوم اشتغلوا بالسوابق فتكون فكرتهم أبدا فيما سبق لهم منه سبحانه وتعالى لعلمهم أن الحكم الأزلي لا يتغير باكتساب العبد وفي الحكم العطائية جل حكم الأزل أن ينضاف إلى العلل الثاني قوم اشتغلوا بالتفكر في العواقب لأن الأمور بخواتمها والعاقبة مستورة ولذا قيل لا يغرنك صفاء الأوقات فإن تحتها غوامض الآفات وأنشدوا :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنـت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر
وساعدتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكّدر

والثالث قوم اشتغلوا بالوقت عن السوابق والعواقب فتكون مراقبتهم مصروفة إلى أداء ما كلفوا به في الوقت ولذا قالوا الصوفي ابن وقته لا ماضي له ولا مستقبل والرابع قوم غلبهم شهود الحق تعالى عن مراعاة الأوقات الثلاث ولذا قال بعضهم إني لست للوقت وإنما أنا لموقت الأوقات وقال الجنيد قلت للسري يوما كيف أصبحت فأنشأ يقول :

لا في النهار ولا في الليل لي فرح ولا أبالي أطال الليل أم قصـــرا

ثم قال ليس عند ربك صباح ولا مساء أشار بها إلى أنه غير متطلع للأوقات بل هو مستوف بشهود المؤقت ومنها المقام وهو ما يتحقق العبد بمنازله من الأدب وما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق بغير تطلب ولا تكلف ومنها الحال وهو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اكتساب كالقبض والبسط والشوق والانزعاج والاهتياج فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب والأحوال تأتي بلا سبب والمقامات تحصل بالطلب والأحوال سريعة الزوال والمقامات ثابتة كالجبال ومنها القبض والبسط وهما حالتان بعد ترقي العبد عن حالتي الخوف والرجاء يعلق قلبه في حالتيه بآجله وصاحب القبض والبسط أسير وقته بوارد غلب عليه في عاجله ومن أدنى موجبات القبض أن يرد على قلبه وارد موجبه إشارة إلى عتاب وقد يكون موجبه إشارة إلى إقبال أو تقريب بنوع لطيف وترحيب وقد يحصل قبض لا يدري صاحبه فسببه التسليم والاستسلام حتى يمضي ذلك الوقت فعن قريب يزول لقوله تعالى : (والله يقبض ويبسط) وقد يكون بسط يرد بغتة ويصادف القلب فلتة لا يعرف له سبب فسبيله الشكوى ومراعاة الأدب لهذا الوقت خطر عظيم فليحذر المكر الخفي ولذا قالوا قف على البساط وإياك والانبساط فمن ساء الأدب على البساط رد إلى الباب ومن أساء على الباب رد إلى سياسة الدواب ثم يوجه إليه التعزير والعتاب فالقبض والبسط بمنزلة الليل والنهار (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) وهما حالتان يتلون فيهما العارفون وسببهما الواردات وضعفها ومن لطف الله تعالى بعبده تلوينه فيهما وإخراجه عنهما بفنائه عن نفسه وبقائه بربه قال ابن عطاء الله في حكمه : بسطك كي لا يبقيك مع القبض وقبضك كي لا يبقيك مع البسط وأخرجك عنهما حتى لا تكون لشيء دونه فالعارفون إذا بسطوا أخوف منهم إذا قبضوا ولا يقف على حدود الأدب في البسط إلى القليل لأن البسط تأخذ منه النفس حظها بوجود الفرح والقبض لا حظ لها فيه ومنها الهيبة والأنس وحد الهيبة انخلاع الوصال بشهود الجلال وحقيقتها قبض مع إجلال وتعظيم وقيل إجلال الحق بإقلال الخلق وقيل تحير القلب عند تجليات الرب فالهيبة خوف الأنبياء والعارفين الأصفياء كما أن الخشية للعلماء والرهبة للملائكة والقبض للسالكين والخوف لعامة المؤمنين وقيل الهيبة حالة قهرية جامعة ينبعث عنها الخوف والرجاء وهي قد ترد بغتة وكشف يلوح فلتة وأما الأنس فهو عيش السر من غير ملاحظة البر أو حياة القلب بنسيم القرب أو بر الحياة بوجود المألوفات ووجدان الحبيب بفقدان الرقيب أو ذوق الوصول بنجح المأمول وهما فوق القبض والبسط كما أن هذين فوق الخوف والرجاء والهيبة والأنس وإن جلا فهما معدودان عند أهل الحقيقة في حيز النقص لتضمنها تغيرا إذ أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغيير حتى ترقوا عن شهود الجلال والجمال بشهود الكمال فهم محو في وجود العين فلا هيبة ولا أنس ولا علم ولا حس ومنها التواجد والوجد والغلبة فالتواجد استجلاب الوجد اختيارا لتفكر أو تذكر وأصله خبر مسلم عنه صلى الله عليه وسلم (فإن لم تبكوا فتباكوا) والوجد ما يصادف القب ويرد عليه بلا تعمد ولا تكلف والمواجيد ثمرات الأوراد فكلما ازدادت وظائفه ازدادت من الله

لطائفه ومن لا ورد له بظاهره فلا وارد له في سرائره وأما الوجود فهو بعد الارتقاء عن الوجد ولا يكون في وجود الحق إلا بعد خمود البشرية لأنه لا يكون للبشرية بقاء عند ظهور سلطان الحقيقة وهو معنى قول أبي الحسن النوري رحمه الله تعالى أنا منذ عشرين سنة بين الوجد والفقد إن وجدت ربي فقدت قلبي وإذا وجدت قلبي فقدت ربي وفي معناه أنشدوا :

وجود أن أغيب عن الوجود فلا يبدوا لدي من الشهود

فالتواجد بداية والوجود نهاية والوجد واسطة بينهما والغلبة وجد متلاحق بوجد كتلاحق البروق وبترادفها يغيب المغلوب عليه عن التمييز فالوجد يطفأ سريعا والغلبة تبقى في القلب سرا بديعا ومنها الفرق والجمع وجمع الجمع أما الفرق فهو ما يكون كسبا للعبد من إقامة العبودية وما يليق بأحوال البشرية والجمع ما يكون من قبل الحق جل وعز من إبداء معان وإسداء ألطاف وإحسان وقيل الفرق شهود الخلق والجمع شهود الحق وقيل الفرق فناء النفس والجمع فناء الحس وقيل الفرق شهود الحق والخلق معا والجمع شهود الحق بالخلق فمن شهد أفعال الخلق جارية عليهم لا منهم فهو المجموع ومن شهد نسبتهم فيما هم فيه فهو المفروق وعلى كل فلا بد منهما فمن لا فرق له لا عبودية له ومن لا جمع له لا معرفة له فإذا خاطب الحق جل جلاله بلسان نجواه داعيا أو سائلا أو منيبا أو شاكرا أو متنصلا قام في محل التفرقة وإذا أصغى بسره إلى ما يناجيه به مولاه أو بقلبه إلى ما عرفه معناه أو ببصر بصيرته إلى ما أراه فهو شاهد الجمع وأما جمع الجمع ففوق هذا كله وهو الاستهلاك بالكلية وفناء الإحساس بما استولى وظهر من سلطان الحقيقة قال القشيري رحمه الله وبعد هذا كله حالة تسمى الفرق الثاني وهي أن يرد العبد إلى الصحو عند أداء الفرائض ليجري عليه القيام بها في أوقاتها ومنها الفناء والبقاء وقد تقدم الكلام عليهما في فضل الذكر وقد يراد به الفناء عن الحظوظ فلا يكون للعبد حظ في شيء حتى يفنى عن الأشياء كلها شغلا بمن فني فيه والبقاء يعقبه وهو أن يفنى عما له ويبقى بمال الله وتكون حركاته في موافقة الحق دون مخالفته وقيل هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى عليه السلام لما تجلى ربه للجبل وقال أبو سعيد الخراز الفناء التلاشي بالحق والبقاء هو الحضور مع الحق فمن استولى عليه سلطان الحقيقة حتى لم يشهد غيرا من الأغيار ولا أثرا من الآثار يقال فني عن الخلق وبقي بالحق ففناء العبد عن أفعاله المذمومة يرتقي به إلى أن يكون محفوظا في مال الله عليه مصروفا عن جميع المخلوقات وقد سئل أبو سعيد ابن الأعرابي عن الفناء فقال الفناء أن تبدو العظمة والإجلال للعبد فتنسيه الدنيا والآخرة والأحوال والدرجات والمقامات وتفنيه عن عقله وعن نفسه وعن فنائه عن الأشياء وعن فنائه عن فنائه لأنه يستغرقه التعظيم انتهى ثم الفناء على ثلاث مراتب فناء في الأفعال ومنه لا فاعل إلا الله وفناء الصفات ومنه لاحي ولا عالم ولا قادر ولا مدبر ولا سميع ولا بصير إلا الله وفناء في الذات ومنه لا موجود إلا الله وأنشدوا في ذلك :

فيفنى ثم يفنى ثم يفنى فكان فناؤه عين البقاء

ومنها الغيبة والحضور فالغيبة غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه من الحق والحضور مراقبة لا يشوبها شهود ولا غفلة مع مواصلة الذكر قال سهل بن عبد الله الحضور أفضل من اليقين لأن الحضور وطنات واليقين خطرات قال القشيري كأنه جعل اليقين ابتداء الحضور وأحال جواز الحضور بلا يقين ولذا قال النوري اليقين المشاهدة يقينا لا شك فيه لأنه يشاهده من لا يثق بما منه ثم يكون مكاشفا في حضوره حسب مرتبته بمعان يخصه الله بها وقد يقال للعبد إذا رجع غيبته ومنها السكر والصحو فالسكر غلبة تمنع من التصرف بالاختيار والصحو هو الرجوع إلى الإحساس بعد الغيبة أو السكر غلبة بوارد قوي فللسكر زيادة على الغيبة من حيث أن السكران قد يكون مبسوطا إذا لم يكن مستغرقا في سكره وهو المتساكر الذي لم يستوفه الوارد فيكون للإحساس فيه مساغ وقد يكون سكره أعلى من ذلك فيزيد على الغيبة والصحو على حسب السكر فمن سكره بحق كان صحوه بحق ومن كان مشوبا سكره بحظ كان صحوه كذلك ومن كان محقا في حاله كان محفوظا في سكره ومن لا فلا

والصحو والسكر يشيران إلى طرق من التفرقة فإذا ظهر من سلطان الحقيقة علم فصفة العبد الثبوت والقهر وفي معناه أنشدوا :

إذا طلع الصباح بنجم راح تساوى فيه سكران وصاح

قال تعالى : (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا) قال القشيري هذا مع رسالته خر صاعقا وهذا مع صلابته صار دكا متكسرا ومنها الذوق والشرب والري وهي أحوال قبل السكر والصحو فالذوق عبارة عن ما يجدونه من ثمرات التجلي ونتائج الكشوفات قال صلى الله عليه وسلم : (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا) وقال (طوبى لمن ذاق أو رأى من ذاق أو رأى من رأى من ذاق) فأول ذلك الذوق ثم الشرب ثم الري فصفاء المعاملات توجب المعاني ووفاء المنازلات توجب الشرب ودوام المواصلة تقتضي الري فصاحب الذوق متساكر وصاحب الشرب سكران والريان صاح فمن قوي حبه تسرمد شربه فإذا ما دامت بالعبد هذه الصفة لم يورثه الشرب سكرا بل يكون صاحيا بالحق فانيا عن الحظ لا يتأثر بما يرد عليه ولا يتغير عما هو به ومن صفا شربه لم يتكدر عليه الشرب ومن صار الشراب له غذاء لم يصبر عنه ولم يبق دونه وأنشدوا :

شربت الحب كأس بعد كأس فما نفذ الشاب ولا رويت

وكتب يحيى بن معاد إلى أبي يزيد البسطامي إن ها هنا من شرب كأسا لا يظمأ بعده أبدا فكتب إليه أبو يزيد عجبت من ضعف حالك إن ها هنا من تحسى بحار الكون وهو فاغر فاه يستزيد فاعلم أن كأسات القرب تبدوا من الغيب فلا تبدوا إلا على أسرار معتقة وأرواح عن رق الأشياء معتقة فكل صاحب حال له ذوق لا بد أن يكشف عن حال أعلى مما فيه فيكون في حاله الأول صاحب ذوق وفي الحال الذي كوشف به صاحب علم وبحال فوق ذلك صاحب إيمان حتى لا يزال طريق الطلب مسلوكا ومنها المحو والإثبات والمحق فالمحو رفع أوصاف البشرية والإثبات إقامة العبادة فمن نفى عن أحواله الخصال الذميمة وأتى بدلها بالأوصاف الحميدة فهو صاحب محو وإثبات يقسم المحو إلى محو الذلة عن الظواهر ومحو الغفلة عن الضمائر ومحو العلة عن السرائر ففي محو الذلة إثبات المعاملات وفي محو الغفلة إثبات المنازلات وفي محو العلة إثبات المواصلات والمحو والإثبات صادران عن القدرة (يمحو الله ما يشاء ويثبت) قيل يمحو عن قلوب العارفين ذكر غير الله ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله والمحق فوق المحو لأن المحو يبقي أثرا والمحق لا يبقي أثرا وغاية القوم أن يمحقهم الحق عن مشاهدتهم ثم لا يردهم إليهم إلا بعد محقه ومنها الستر والتجلي فالستر حيلولة حجاب البشرية بينك وبينهم والتجلي رفع ذلك الحجاب فالتجلي عبارة عن مطلق الظهور في الجملة فيتجلى الحق تعالى للعبد في بدايته بالآثار برسم الاعتبار ثم يتجلى له في حالة توسطه بمعاني الصفات وحقائق الأسرار ثم يتجلى له في نهايته بعظمة الذات المؤذنة بفناء الرسوم والسمات فتجلي الآثار منعش وتجلي الصفات معطش وتجلي الذات مدهش فأول التجليات ما يكاشف به عن آلاء الله المعبر عنها بعالم الملكوت بعد مجاوزة الكشف في عالم الملك ثم تجلي المكاشفة بعالم الحقائق فيتجلى عليه بما لا تستطيع الأقلام رقمه ولا الطروس حمله ثم ينتقل إلى عالم المعاني المعبر عنه بعالم الجبروت فيتجلى عليه بعلوم الصفات وأجناس العوالم الروحانية فيكون عند ذلك واصلا موصلا دخل الحضرة واكتسى الكمال والنصرة قال القيشيري رحمه الله تعالى : العوام في غطاء الستر والخواص في دوام التجلي فصاحب التجلي ينعت خشوعه أبدا ففي الخبر إذا تجلى الحق لشيء خشع له فالستر للعوام عقوبة وللخواص رحمة إذ لولا ستره عليهم ما يكاشفهم عند تجلي سلطان الحقيقة فعوامهم عيشهم في التجلي وبلاؤهم في الستر وأما الخواص فهم بين طيش وعيش إذا تجلى لهم طاشوا وإذا ستر عليهم ردهم إلى العمل فعاشوا ومنها المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة والمفاتحة والمجاهدة والمجالسة والمحادثة وقد تقدم الكلام عليها فلنعد بعضها هنا جمعا للنظائر فالمحاضرة حضور القلب وقد يكون بتواتر البرهان وهو بعد رفع رداء الستر وإن كان حاضرا باستيلاء الذكر ثم بعدها المكاشفة وهي حضور القلب بنعت العيان من غير افتقار في هذه الحالة إلى تأمل دليل وتطلب سبيل وقيل المكاشفة ظهور الشيء

لاستيلاء ذكره من غير بقاء تهمة وقيل هي شهود العين بلا أين والمفاتحة المباداة من الله تعالى بما هو فيه على بساط الضراعة والمناجاة والشكوى إليه فيناديه مولاه بمعاني أسمائه وصفاته وأفعاله وعظمة ذاته والمواجهة المقابلة والمقصود انتصاب القلب لملاحظة الرب دون ملاحظة معنى سواه فيواليه بفتوح أسراره وسطوع أنواره حتى لا يبصر شيئا إلا شاهده فيه أو عنده والمجالسة التزام العبد الخضوع والأدب في بساط العبودية حتى كأن مولاه جليس له فيكرمه مولاه إكرام الجليس جليسه ففي الحديث القدسي : (أنا جليس من ذكرني) أراد يؤنسه بلطفه ويقربه بعطفه حتى لا يكله إلا غيره فيكرمه مولاه بأن يكون محدثا عنه بالأسرار والآثار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كان يكون في الأمم قبلكم محدثون فإن يكونوا في أمتي فعمر منهم) وقيل المشاهدة مطالعة الجمال والجلال ببصيرة القلب بوجه يقوم به العيان من حيث لا وهم ولا كيف فصاحب المحاضرة مربوط بآياته وصاحب المفاتحة مأمور بضراعته وصاحب المواجهة مغتبط بإلهاماته ومنها التلوين والتمكين فالتلوين صفة أرباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق فما دام السالك في الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقي من حال إلى حال وصاحب التمكين ثم اتصل وأمارة وصوله واتصاله فناؤه بالكلية عن كليته قال بعض المشايخ منتهى سفر الطالبين ظفرهم بنفوسهم يريد به انغماس أحكام البشرية واستيلاء سلطان الحقيقة فإذا دامت للعبد هذه الحالة فهو متمكن وما دام مرتقيا فهو متلون إذ يضحي في حالة النقص والزيد فإذا أمكن تمكن ثم مع تمكنه لا يزال في ترق وازدياد وتلون في مقامات العرفان وحقائق الامتنان فهو في أصل حاله متمكن ثم يتمكن في حالة أعلى من التي كان فيها ثم يرقى منها إلى فوق فما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم : (إنه ليغان على قلبي في اليوم أكثر من سبعين مرة فاستغفر الله تعالى في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة) وذلك الغين غين أنوار لا غين أغيار وذلك بحسب الترقي والتلون في مقامات العرفان ونفحات الرحمان فكل مقام انتقل إليه من مقامات الكمال في فراديس الجمال رأى ما قبله نقصا بالنسبة فيستغفر منه ثم كذلك إلى ما لا نهاية له من عمر الآخرة إذ لا نهاية لمقدورات الحق سبحانه ومن ثم قالوا حسنات الأبرار سيئات المقربين ومنها القرب والبعد فالقرب زوال الحس واضمحلال النفس وانقطاع المسافة وارتضاع المخالفة أو إسبال الوصف وكمال الكشف والدنو بلا تحديد ومحو عند توحيد فأول رتب القرب القرب من طاعته وتواصل عبادته ثم قرب بإيمانه وتصديقه ثم قرب بإحسانه وتحقيقه وقرب الحق سبحانه من العبد لا يكون ببعده من الخلق فقربه سبحانه من عبده ما يخصصه به حالا من العرفان وما يكرمه مآلا من الشهود والعيان وفي ما بين ذلك باللطف والامتنان فقربه جل بالعلم والقدرة عام في سائر العالمين وباللطف والنصرة خاص بالمؤمنين وبخصائص التأنيس ولطائف التقديس مختص بالأولياء العارفين وبالجملة فمعنى قرب العبد من الرحمان وقرب الرب من العبد أن يتقرب العبد بالخدمة ويتقرب إليه الرب بالرحمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما تقرب إلي المتقربون بأفضل من أداء ما افترضته عليهم ومن تقرب إلي شبرا تقربت إليه ذراعا ومن تقرب إلي ذراعا تقربت إليه باعا ومن أتاني يمشي أتيته هرولة ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعا وبصرا ويدا) أي كنت في قضاء حوائجه مثل هذه فأخبر سبحانه وتعالى عباده أنهم إن تقربوا إليه بأدنى خدمة تقرب إليهم بأرفع رتبة ثم هو في الحقيقة أقرب من كل شيء فليس شيء أقرب إليه من شيء وهو أبعد عن كل شيء من كل شيء فليس شيء أبعد إليه من شيء فهو في قربه بعيد وفي بعده قريب فهو أقرب إلى عين الإنسان من نورها إلى إنسانها ومن أماقها إلى أجفانها وهو موجود في كل مكان ولكنه منزه عن التحيز بالمكان ومن جريان الزمان ثم إن رؤية القرب حجاب عن القرب فمن شاهد لنفسه محلا أو نفسا فهو منكور به ومن ثم قالوا في أدعيتهم أوحشك الله من قربه أي حجبك عن شهودك لقربك منه إذ الاستئناس بالقرب من سمات الغرة بالحق وأما البعد فهو ضد القرب بجميع معانيه فأول مراتب الغفلة التدنس بالمخالفة والتجافي عن الطاعة ثم الارتباك في شباك الشك ثم الهلاك في مهاوي الشرك ومنها الشريعة والحقيقة فالشريعة إقامة بوظائف العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية فالشريعة مجاهدة والحقيقة مشاهدة ولا تباين بينهما إذ هما متلازمتان إذ الطريق إلى الله تعالى له ظاهر وباطن فظاهرها الشريعة وباطنها الحقيقة فكمون الحقيقة في الشريعة ككمون الزبد في لبنه والكنز في معدنه وككمون النار في عود الزند أو طيب الرائحة في الرند فبدون مخض اللبن أو حفر المعدن لا يظفر من اللبن بزبده ولا من المعدن بقصده وكذا بدون حك الزند أو حرق الرند لا يبدو أوار النار ولا تشم رائحة البخار فمن لم يقم بوظائف الشريعة لا

تظهر له لطائف الحقيقة فالمراد منها إقامة العبودية على الوجه المراد منك فكل شريعة لا حقيقة لها فهي عاطلة وكل حقيقة لا شريعة لها فهي باطلة وقد قال شيخنا الوالد رضي الله عنه :

حقيقة ليست لها شريعـــــة باطلة قد أفلت سريعـــــة
وإن خلا التشريع من تحقيق صاحبه زاغ عن التصديــق

فالشريعة القيام بالأوامر والحقيقة مشاهدة الأمر ثم إن العلم علمان علم ظاهر هو الشريعة وعلم باطن هو الحقيقة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (العلم علمان علم باللسان وعلم بالقلب فأما علم اللسان فهو حجة الله تعالى على عباده وبه تعبدوا وأما علم القلب فهو الذي لا يخشى الله العباد إلا به) فعلم القلب هو العلم اللدني الذي لم يسطر في الطروس ولم يحفظ بالدروس وإنما هو تلقين إلهي ووهب لدني بلا واسطة الملك بل هو من العلي الملك كما كان الخضر علم بالعلم اللدني ما لم يعلمه موسى بالعلم الوحيي فخرق السفينة بغير سبب وقتل تلك النفس الزاكية بغير نفس فوجب على موسى عليه السلام إنكار ذلك قياما بالشريعة لا إنكارا للحقيقة لأنه مشرع ومقتدى به فلو سكت كان سكوته تقريرا لذلك الفعل في الشريعة وليس منها ولذلك تأدب معه الخضر فقال : (إنك لن تستطيع معي صبرا) أي على مخالفة الشريعة انتهى ومنها النفس والمراد به ترويح القلوب بلطائف الغيوب فصاحب الأنفاس أرق وأصفى من صاحب الأحوال فكأن صاحب لوقت كالمبتدئ وصاحب الأنفاس كالمنتهي وصاحب الأحوال واسطة بينهما فالأوقات لأرباب القلوب والأحوال لأرباب الأرواح والأنفاس لأرباب الأسرار ومنها علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين فعلم اليقين ما كان بشرط العيان وعين اليقين ما كان بحكم البيان وحق اليقين ما كان بنعت العيان فعلم اليقين لأرباب القلوب وعين اليقين لأصحاب العلوم وحق اليقين لأصحاب المعارف ومنها الورد والوارد فالورد ما يقع بكسب العبد من عبادة ظاهرة أو باطنة والوارد ما يرد على العبد من لطائف وأنوار ينشرح بها صدره ويستنير بها قلبه فالورد ما منك إليه والوارد ما منه إليك والورد حق الحق منك والوارد حظك منه وقيامك بحقوق عليك أولى ما لعبودية من طلب حظوظك منه فإذا ثبتت مزية الورد على الوارد من تلك الحيثية ومنها الشاهد فكثيرا ما يقولون فلان يشاهد الوجد وفلان يشاهد الحال ويريدون بذلك ما كان حاضرا بقلبه مما الغالب عليه ذكره حتى يراه ويبصره وإن كان غائبا عنه وسئل الشبلي عن المشاهدة فقال هيهات من أين مشاهدة الحق وإنما لنا شاهد الحق يريد استيلاء ذكره على القلب وحضوره بسره ومراقبته فإن المحبة موجب دوام ذكر المحبوب واستيلائه على حبة القلب ومنها السر وسر السر قال القشيري رحمه الله السر يحتمل أنه لطيفة مودعة في القالب كالروح وأصولهم تقتضي أنه محل المشاهدة كما أن الروح محل المحبة والقلب محل المعرفة وقيل السر ما لك عليه إشراف وسر السر ما ليس لك عليه إشراف إذ هو باطن الروح فالسر ألطف من الروح والروح أشرف من القلب ويطلق السر على ما كان مكتوما بين العبد وربه في الأحوال وقال القشيري رحمه الله تعالى الأرواح مودعة في القلوب ولها ترق في حال النوم ومفارقة البدن ففي الفردوس لأبي شجاع عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (إذا نام العبد على وضوء أذن لروحه أن تسجد تحت العرش) ومنها الاتصال والوصول فالاتصال مكاشفات ومشاهدات الأسرار وقيل الاتصال والوصول بمعنى والمراد بهما في اصطلاح القوم العلم به تعالى من حيث الجلال والجمال والعظمة حتى ينتج ذلك إجلالا وتعظيما يسري في كلية العبد على حسب ما انتهى إليه من علم العظمة والجلال فيجري حركاته وسكناته على حكمه من غير إجلال وله في ذلك مراتب تفصيلية لا تتناهى في دار الآخرة الأبدية فضلا عن هذه الدنيوية وله مراتب ثلاث تنتهي إليها كل المراتب أولها العلم بالجلال المطلق الذي لا ينتهي صاحبه لغير الفخر المحقق الذي لا يشعر بعدم ارتفاعه إلى الأبد بظهوره من بساط الجلال الذي لا نهاية له وإليه الإشارة بـــ (لا أحصي ثناء عليك) و (سبحان من لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته) الثاني العلم بالجلال من طريق الصفات وكمالها وكمال موصوفها الذي ينتهي إلى تعظيم الحق إذ لا يرى صفة لغيره إلا بإثباته هو إياها فيقول بقلبه ولسانه لا حي ولا عالم ولا قادر سواه الثالث العلم بالجلال من طريق الأفعال واتساعها وعدم جريانها على وفق العبد في كل حال بل يفعل الحق كما يشاء دون حجر ولا حصر ولا توقف قال السهروردي في عوارف المعارف كل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهي رتبة الوصول ثم

يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفعال وهي رتبة في التجلي فيفنى عن فعله وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله تعالى ويخرج في هذه الحالة عن التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم من يجده في مقام الهيبة والأنس بما يكاشف به من مطالعة الجلال والجمال وهذا يصل بطريق الصفات وهي رتبة في الوصول ومنهم من ترقى إلى مقام الفناء وأنوار اليقين مشتملة على باطنه بالمشاهدة مغمور في شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلي الذات لخواص المقربين وهذه رتبة في الوصول وفوق هذه رتبة حق اليقين ويكون ذلك في الدنيا كاللمح وهو سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى تحظى بها روحه وقلبه حتى قالبه وهذه هي أعلى المراتب فإذا تحققت الحقائق علم العبد من هذه الأحوال الشريفة أنه أول منزل من الوصول فأين الوصول هيهات منازل الوصول لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدية فكيف بالعمر القصير الدنيوي وإنما كانت مراتب الوصول غير متناهية لأن المعروف جل وعز غير متناه في جلاله وكماله وعظمته وكبريائه وأما الانفصال فهو التخلص من لوث الصلصال بورود زائد الاتصال وقيل الانفصال التقييد بالحس أو احتجاب الأسرار بملاحظة الأغيار ومنها الخمود والجمود وهما بعد انطفاء نيران الخصال المذمومة كنار الشهوة والغضب والهوى والشيطان ونحوها وهما يتعاقبان فكل ما خمدت النار جمدت أماكنها فيصير السائر كالجامد وجموده إذ ذاك غير مذموم إذ هو في راحة وخفة وطرب ونشاط فلا تدفئه الثياب المدفئة ولا الأكنان المنيعة فيظهر فيه معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم اغسلني بالماء والثلج والبرد) فلو دخل من هذه حاله النار لم تعد عليه النار بالحق ولا بالألم واعلم أنه ليس كل من دخل النار في رأي العين ولم يحترق يعد من هذا القبيل إذ ربما فعل الشعوذي مثل ذلك فيخل للناظرين أنه دخل النار وهو لم يدخلها والفرق بين المحق والمدعي إنما هو نيران الشريعة فكل ما صدر من أهل التقوى فهو حق وكل ما صدر من غيرهم فهو باطل وأيضا الشعوذي يمكن إبطال ما عنده بمبطلات السحر من القرآن وغيره وذلك إن تلوته على التقي ازداد حاله ويقينه فيقوى ما عنده وقد ورد في كل من هذين النوعين حكايات كثيرة يطول بنا جلبها ومنها البواده والهواجم فالبواده ما يفجأ قلب العارف على سبيل الوهلة إما لموجب فرح أو لموجب ترح والهجوم ما يرد على القلب لقوة الوقت من غير تصنع ولا تطلب وتختلف أنواره بحسب قوة الوارد وضعفه فمنهم من لا تغيره البواده والهواجم ولا تؤثر في خاطره قال تعالى : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) ومنها التجريد والتفريد والمسامرة فالتجريد تجرد العبد من الأغراض فيما يفعله فيفعل ليقدر قدر ما كشف له من العظمة حق قدره لا لغرض دنيوي ولا أخروي بل ليؤدي ما عليه عبودية وانقيادا والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي بل يراه منة من الله تعالى إليه فالتجريد ينفي الأغيار والتفريد ينفي النفس مع الاستغراق في رؤية نعم الله تعالى والمسامرة تفرج الأرواح بخفي مناجاتها وورود اللطائف في سر السر بلطيف إدراكاته ومنها الهم والاهتمام والهمم فالهم هو حركة الفكر في السفليات وأعظمه الاستغراق وأقله حضرة واحدة وهو مذموم والاهتمام هو إعمال الفكر في العلويات الجبروتية كالجنة وما معها وأما الهمم فهي عنهم ثلاث الأولى الهمم القواصر التي لا تقتضي التهمم والأماني بلا حزم ولا عزم ولا عمل والثانية الهمم المتوسطة وهي التي توجب الحزم والعزم ووجود الفعل سواء وقع عنها الانفعال أم لا كما قيل :

على المرء أن يسعى ويبذل جهده وليس عليه أن يساعده الدهـــــر

والثالثة الهمم السوابق وهي الأنفس الفعالة في الوجود بلا تردد ولا توقف فيقع الانفعال بمجرد حصولها وهي ثلاث أيضا الأولى نفس العائن والساحر فيقع ما أراد من الخبث ولذلك لا توصف بها نفس كريمة والثانية نفس المرتقي والمتجرد فإذا جرد نفسه لوقوع شيء وقع ولذا لا يصح منها عند ملابسة العوائد المخالفة لأصله وقد نص الفقهاء على وجوب القود على من يقتل بالحال والثالثة نفس العارف عند تحقيقه ويقينه وقوة إيمانه حتى يصير بسم الله منه بمنزلة كن من الله أبدا فلا يريد شيئا إلا كان لوقته دون عمل ولا توقف وإليه الإشارة بحديث : (كنت له سمعا وبصرا) في بعض التأويلات ويعضضه حديث : (إن الله تعالى يقول يا عبدي أنا الذي أقول للشيء كن فيكون فأطعني أجعلك تقول للشيء كن فيكون) وهو معنى قولهم أحال فلان همته على كذا وانفعل له الآن والفعل والانفعال حقيقة إنما هما بقدرة ذي الجلال كما قال ابن عطاء الله : سوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار وقال عبد القادر رضي الله عنه :

وأمري بأمر الله إن قلت كن يكن وكل بأمر الله فاحكم بقدرتي

ومنها التصافي وهو مصافاة العبد ربه بطهارة ذاته من الأوزار وقلبه من الأكدار وتزكية روحه من الالتفات إلى الأغيار وتنزيه سره من ملاحظة أثر من الآثار فيصافيه مولاه بعنايته ويواليه بعصمته ورعايته ومنها المعية وهي دوام شهود دوام العظمة والجلال مع المراقبة على بساط الهيبة فلا تعتري قلبه الدعوى ولا لسانه الشكوى كما أشار إليه الكمال عند تضاعف البلبال (لا تحزن إن الله معنا) وهي ثمرة تحسي خمرة العرفان ونتيجة ذوق حلاوة الإيمان ومنها السنوح و الرصوف فالسنوح بوارق أنوار تتوارد على قلب من رسخ قدمه في المقام الواحد مع عدم شروق شموس المعارف فكلما أظلم عليه بالفقد سماء قلبه سنح فيها لائح كشف حقق رسوخ قدمه وهو أتم وأذهب للظلمة مما تقدم من اللوائح واللوامع وما معها والشموخ عبارة عن التمكين في مقام التحقيق واستعمال القوى الباطنة بكمال استنارة القلب وصفاء مرآة القلب وكمال حياة الروح وحال السر بتوالي أنوار التجليات الحقيقية مع حفظ الأحوال واستقامة الأعمال ومنها المحق والسحق فالمحق فوق المحو كما قدمنا ومنزلة السحق من المحق كمنزلة المحق من المحو وحاصل الكل أثر تجل جلالي يبقي على العبد من رسومه أثرا وهو متفاوت بحسب القوة والضعف في نفسه وبحسب استعداد المحل لما يرد عليه من سلطان التجلي وغاية مطلبهم سحقهم عنهم ثم لا يبقي عليهم منهم باقية ومنها الاختيار والازدجار فالاختيار عبارة عن الفناء بعد الفناء عن الفناء فصاحبه محفوظ المقام ثابت الأقدام لانشراح صدره واتساع سره لقوته عن وارده وسكونه تحت صدمة شاهده فهو متحرك في سكونه متغلغل في ثبوته عامل بالاضطرار في قالب الاختيار فإن نزل إلى سماء الحقوق وأرض الحظوظ فبالإذن والتمكين والرسوخ في اليقين إذ لا بد في الحقوق من إقامة العبودية وفي الحظوظ من القيام بحق البينة وعمارة هذه الدار طبعا المقصود به عمارة تلك شرعا فلا ينزل إلى الحقوق بسوء أدب الغفلة ولا الحظوظ بمجرد الشهوة بل يدخل في ذلك كله بالله ولله ومن الله وإلى الله والازدجار قريب من الاختيار لأنه لخواص أهل التمكين ممن ترقى عن أعمال الفرق والجمع فازداد صحوا بشربه وازداد حضورا بغيبه فلا جمعه يحجبه عن فرقه ولا فرقه يحجبه عن جمعه ولا فناؤه يصرفه عن بقائه ولا بقاؤه يصرفه عن فنائه لازدجاره بإعطائه كل ذي قسط قسطه وتوفيته كل ذي حق حقه فازدجاره عبارة عم ملكه الأحوال والتمكين في مقامات الرجال بحيث لا يغلبه محو ولا طي ولا يحجبه شيء عن شيء لاتساع نظره ونفوذ بصره ومنها الجذب والسلب بالجذب فالجذب عبارة عن أخذ الحق تعالى قلب عبده دون مهلة بوجد لا يبقى فيه متسع لغيره وذلك بأن يبدو للقلب من التعظيم والإجلال ما يستغرقه بحيث لا يشعر معنى من المعاني ولا يتخيل مبنى من المباني ولا نفع له ولا علة بل مجرد العظمة والجلال دون زائد وأهله منهم من يبقى على جذبته فيغلب على حاله ويخلط في أفعاله فيظن الناس أنهم مجانين ولذا قال قائلهم :

حيث ما دارت الزجاجة درنا يزعم الجاهلون أنا جننـــا
ما جننا وما بنا من جنـــون بل شربنا مدامة فسكرنـــا

ومنهم من يرده الحق بعد الكشف له عن كمال ذاته إلى شهود صفاته ثم يرجعه إلى التعلق بأسمائه تعالى ثم يرده إلى شهود آثاره فتجمعه الحقيقة في الرجوع لشهود الحكمة في الأحكام قهريها وأمريها فتكون معانيه على المعاينة وموافقته على المشاهدة فعند ذلك يقوم بالحقيقة حفظا للحرمة ويتساهل بالأدب قياما بحق الحكمة فلا يبقى له في الوجود مطلب ولا يفوته في البساط أدب وهذا حال كمال بالنسبة للأول قيل للشبلي ما علامة صحتك في حالك قال أن لا يجري علي في حال الغيبة ما يخالف الصحة بخلاف المسلوب فإن السلب عبارة عن أخذة الجذب بمرة من غير رد إلى وهل فلا يسلك مسلك طريق التدلي كما قدمنا وبالجملة فالجذب والسلب عبارة عن حقيقة واحدة تختلف باختلاف العوارض فإن أخذ من أول وهلة بشهود سلطان عظمة الذات ثم رد إلى شهود الصفات ثم الأسماء ثم الأفعال كما قدمنا فمجذوب إن بقي

مستغرقا في شهود الذات غائبا عن أنواع البشريات كما وصفنا فمسلوب اقتضى التجلي الذاتي ذهوله فيه فكان في الله تلفه فعلى الله خلفه قال الشيخ بن مدين :

فقل للذي ينهى عن الوجد أهلـــه إذا لم تذق معنى شراب الهوى دعنا
فلا تلم السكران في حال سكــره فقد رفع التكليف في سكرنا عنـــا

قال الشيخ السنوسي في شرح كبراه عند إيراده هذه الأبيات في مبحث الوحدانية أن سبب انتقال الأولياء عن فطرتهم الإنسانية إلى الغلبة الحالية أن قلوبهم كانت محجوبة بما كانت عليه من الأعمال التي كلفوا بها ولم يكن لهم علم بأن للحق فجأة لمن خلى به سره وأطاعه في أمره وهيأ قلبه لنوره من حيث لا يشعر فلما جاءه الحق على غفلة منه بذلك وعدم استعداد لما هنالك ذهب بعقله في الذاهبين وهام بروحانيته في الهائمين وبقي في عالم شهادته بعادة حيوانية يأكل ويشرب ضروریاته بالروح الحيواني المفطور على العلم بمنافعه المحسوسة ومضاره المؤلمة من غير فكر ولا تدبير ولا رؤية وهو مع ذلك ينطق بالحكمة ولا علم له بها ولا يقصد نفعا بها وهؤلاء سقط عنهم التكليف لسلب العقل الذي هو شرط التكليف فليس لهم عقول يفقهون بها (تراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون) ووجه الاعتذار إذا بدر منهم ما لا تحتمله الشريعة أنهم تختلف أحوالهم بقوة الوارد وضعفه وقوة سجية العبد واستعداده واختلاف وصف الوارد باختلاف حضرته فما كان من حضرة الجمال يبقى معه تصرف الحيوانية في ما فطرت عليه طبيعتها من غير تدبير ولا رؤية كسائر الأنعام لأن الجمال من شهود اللطف وغلبة الرحمة وربما أجرى الحق على بعضهم أفعال عبادته من غير قصد لذلك قال المكي في رسالة السائس ولقد ذقت من هذا الأمر شيئا مر علي وكنت في الصلوات الخمس إماما بالجماعة على ما قيل وقد كنت في جميع الصلاة من أقوال وأفعال وأنا في ذلك كله لا علم لي بالجماعة ولا بالمحل ولا بشيء من عالم الحس لشهود غلب علي غبت فيه عني وعن غيري وإن حالي في حركاتي كالحركات الواقعة من النائم أشاهد ذاتي في النور الأعم والتجلي الأعظم أصلي في العرش العظيم عارف بالحركة بمعزل عن نفسي وكنت أتعجب من ذلك المصلي لا هو أنا وليس غيري وأما ما كان لهم من حضرة الجلال فليس يبقى معه تصرف بحيوانية الإنسان في شيء مما جبلت عليه خلقتها لأنه من حضرة القهر والغلبة والعظمة فلا يبقي لهم تصرفا ولا يدع لهم تعرفا فمن ذلك ما روي عن أب غفال المجذوب أنه منذ سيطر عليه وارده ما أكل ولا شرب إلى أن توفي ومكث على ذلك أربعة أعوام ومنها الاستواء وهو عبارة عن استواء الحال وثبوت القدم في رتبة الاعتدال بكون العبد واقفا على مراد ربه فلا رجحان عنده لجانب على جانب برغبة فيه أو عنه لاستواء الأحكام عنده ومنها الحرق بالحاء المهملة والقاف وهو احتراق الآثار البشرية والبقايا العنصرية بنيران الأذكار ومشاهدة الملك الجبار ومنها الفتح وهو ما يفتح للنفوس من بركات التوفيق وللقلوب من زائد التحقيق وأدب هذا الحال حسي لانتظار وجود لطفه ودوام التوقع لحصول عطفه واستدامة التطلع لنيل كرمه واستمرار التطلب لنعمه ومنها الغيب وهو عبارة عما غاب عن إدراك الظاهر مما يدرك بأبصار البصائر مما يختص يه الحق جل وعز من ارتضاه لحمله من خاصة رسله وأنبيائه ومن تولاه بوراثته من أوليائه من أسرار الغيب بواسطة و بدونها وفي ابتداء هذا المقام يتصف العبد بما تقدم من الذوق والسكر والشرب والصحو والهيبة والأنس والمحو والمحق والسحق إذ هذه كلها تهييآت وآثار لمطالعة الغيب من عالم الملكوت أو عالم الجبروت أو عالم العزة ومنها تكون الغيبة على النحو الذي قدمنا ومنها قاب قوسين فهو عبارة عن مناهي الترقيات وحال المصافاة والمشاهدات والمكافحات والمشافهات مما تكل عن أدنى ذرة من ذراته العبارة وتخجل عن أول بديهة من بدائهه الإشارة ومنها الاقتباس وهو عبارة عن شرب الأرواح لأنوار الكفاح فيزجج الجسد بملابسة سطوع أنوار العظمة الساري في ذات البدن سريان الماء في الفنن فيؤوب ثم يذوب ثم يطيب ثم يغيب ومنها الانعكاس وهو عبارة عن الرجوع من أخذة الجذب واصطلام السلب إلى الاستخلاف في العبادة وتحمل أعباء إرشاد العباد بعد هيمانه ما شاء الله واستغراقه عن الإحساس في التياه فشهد موجودا لا حد له فاضمحلت الكائنات عنده وبقي هذا الموجود وحده كان الله ولا شيء معه فبفني تارة وبقي أخرى حتى إذا أريد منه الكمال كان الحق له وليا وناداه نداء خفيا فيمده بالفهم عنه ويؤيده بالقوة منه فهناك ينتبه من سكرته ويفيق من غمرته فيقول رب أغثني فإني هالك فعلم أن هذا

البحر لا ينقذه منه شيء إلا الحق جل وعز فيمده حينئذ بأسرار الحياة ويعلمه أسرار المعلومات ويجعله خليفة في جميع الخلافات قد كسي نورا وألبس حبورا وفي معناه أنشدوا :

حيرتموني في جلال كمالكـم فحرت بين كمالكم والـذات
فبقيت من دهش بكم حينا بـلا جمع ولا فرق على اللـذات
حتى أفضت من بحار كمالكـم سحب العناية والبقاء لذاتي

ومنها الانتعاش والارتكاس فالانتعاش هو حياة روح المحب بترويح التجلي الإجمالي على باطن الروح مما يفيض من الإحسان وأنواع الامتنان الموجبين لمزيد الاطمئنان فيقوى المحب بوارده ويتجلد لصدمات شاهده فمن غلب عليه هذا الحال هو الذي يسمن جسمه ويحس وسمه دون استعمال غذاء ولا معاناة جلاء روي أن أبا يزيد زار رجلا من سبع مائة فرسخ ماشيا فلما رآه سمينا ندم في نفسه على القدوم إليه فتوسم الرجل ذلك منه قال يا أبا يزيد لا تفسد مسيرك إلي سبع مائة فرسخ فإن سمني من فرحي به فسرور طعام المحب لا نحول معه والارتكاس مخالفه فالمرتكس هو الذي اصطلمه تجلي الجلال واحترق بنيران البلبال فدامت هيبته واحتشامه وتوالت غيبته واصطلامه فهو الذي ينحل جسمه ويتغير وسمه لخوف الحجاب وتوقع صدمة العتاب وصاحب الانتعاش منتبه أن لا ينظر ولا إلى لاحقة استغراقه في المحبة وشهود ما من الله من لطائف منته وتجليات رحمته فلا محالة يخامره السرور والفرح إذ خوف السابقة عنده التفات عن وقت وخوف اللاحقة فوات وقت وأما من ووجه نتجل المحبة والتعظيم لازمه الوجل والتحسر والذبول ومنها الخرق والفدق فالخرق عبارة عن خرق حجب الكثائف المانعات من الوقوع على كنز المعارف بوجود الأدب ظاهرا وباطنا بين يديه جل وعز مع الانحياش للحق وقوفا مع الحقيقة والفدق قريب منه وهو فدق سدف الظلم الحاجبة للقلوب عن مطالعة أسرار الغيوب بوارد غالب ونور غير غائب والمراد فدق أوصاف النفس الدنية بظهور أوصافه العلية ونعوته القدسية على العبد لئلا يظهر أثر كدوراتها في صفاء لأوقاتها فإذا أشرقت لك الأنوار على ليل وجود العبد فنفت ظلمات نفسه فبقي في نهار الوصلة والقربة بغير حول منه ولا قوة وإن غابت عنه تلك الأنوار المشرقة رجع إلى أصله ولزم الوقوف على محله وكان في ليل القطيعة والحجاب كما كان قبل الفدق فالفدق حال يدوم بدوام الشهود ويزول بزواله كما يقول من غلط في هذا الأمر وتغالى فمن يزعم أن القرب من الله والوصول إليه إنما يكون بانعدام الأوصاف البشرية وزوالها بالكلية واتصاف العباد بصفات الربوبية بدلا منها هيهات هيهات وحاشا وحاشا فوقعوا من ذلك في ضلال وتزندق وخبال نعوذ بالله من ذلك ومنها الانمياع هو عبارة عن ذوبان البشرية باستيلاء سلطان نار المحبة التي لا تبقي ولا تذر وذلك أنه لما تمكنت المحبة من حبة قلب المحب وتصوبت إلى باطن الروح التهبت أجزاء الروح بنار الشوق فصفت وخفت ثم طابت ثم ذابت ذوبان الشمع على لهيب النار وذلك لا يكون إلا بعد انمباع الكثائف بإمرار نار الذكر على أطوادها حتى تندك وتذوب وتنزعج فيبقى العبد روحانيا ملكيا تدور روحه مع الأملاك وتدور عن أمره دائرة الأفلاك ومنها الوهل والوله وهما من تجليات الإرادة وحاصل الوهل دهش وحيرة تحصل للمحب تستولي عليه بلطيف روحانيتها فيذهب اللطيف الكثيف وتتلاشى الشبحانية بالروحانية لقوة سلطان المحبة فإذا آذنت بحرقها دمرت كل شيء بأمر ربها فيوهل المحب ويغيب عن كل شيء في جنب الحبيب ويقرب منه الوله وهو عبارة عن غيبة كلية المحب في ملاحظة معنى جمال المحبوب حتى لا تبقى منه بقية ولا يعبر عن الوله ونحوه من أنواع المحبة بأكثر من النعت بالفناء في شهود المحبوب والاستهلاك في عظمته ومنها الوداع وهو عبارة عن موادعة الأكوان ومقاطعة الأقران ومهاجرة الأوطان رغبة في الوصلة للرحمان على كاهل الحب المؤدي للقرب وهذه بعض درجات المحبة وهي سبعون درجة فإذا وصل الحب إلى منتهى وضع أول قدم في المشاهدة فتقطب ثم ارتقى في تلك الدرجات إلى حضرة الغوثية ثم يرتقي حيث لا نهاية في منازل الغوثية ودرجاتها وإن إلى ربك المنتهى ولنثن العنان عن الجري في هذا الميدان ولولا ضيق نطاق هذا الصنف لشنفت الآذان منه بألف شنف لكن من أراد التنزه في رياضه والتظلل بدوح غياضه فليطالع بعض تآليفنا فيه فيجد ما يغنيه ويكفيه وأما قول ابن البناء ولا درى مقاصد الرجال فقد قدمنا أولا أنه أراد بمقاصد الرجال معرفة اصطلاحاتهم في تعمية ألفاظهم بالإشارات التي لا يعرفها غيرهم قال الشعراني في

الدرر فإن قيل لم رمز القوم كلامهم في طريقهم بالاصطلاح الذي لا يعرفه غيرهم إلا بتوفيق منهم ولم يظهروا معارفهم للناس إن كانت حقا كما يزعمون ويتكلمون بها على رؤوس الأشهاد كما يفعل علماء الرسوم برسومهم فإن في إخفاء العارفين عن الناس معارفهم رائحة ريبة وفتح لباب رمي الناس لهم بسوء العقيدة وخبث الطوية فالجواب أمهم إنما رمزوا لذلك رفقا بالخلق ورحمة بهم لئلا ينكروا شيئا من ذلك فيحرموهم ولذا قال ابن عربي في الفتوحات إنما وضعوها نفيا للدخيل بينهم حتى لا يعرف ما هم فيه شفقة عليه أن يسمع شيئا لا يصل إليه فينكره على أهل الله فيعاقب بحرمانه فلا يناله بعد ذلك أبدا وقال القشيري إنما رمزوا معارفهم غيرة على طريق أهل الله عز وجل أن تظهر لغيرهم فيفهموها على خلاف الصواب فيضلوا في أنفسهم ويضلوا غيرهم ولهذا نهو المريد أن يطالع في رسائلهم لنفسه من غير قراءة على شيخ وقد كان الحسن البصري والجنيد والشبلي وأضرابهم لا يقرؤون هذا العلم إلا في قعور بيوتهم بعد غلق الأبواب وخبء المفاتيح ويقولون إن سئلوا عن ذلك أتحبون أن يرمى بالزندقة الصحابة والتابعون الذين أخذنا هذا العلم عنهم أو فهذا هو سبب رمز العبارات التي وضعت في الكتب وكان حقها أن لا تذكر إلا مشافهة ولا توضع في الطروس لولا خوف الدرس فإن العلم كان يموت بموت أهله لو لم يدون ولذلك دونوا علمهم ورمزوه غيرة على أسرار الله أن تذاع بين المحجوبين وأنشدوا في ذلك :

ألا إن الرموز دليل صـــدق   على المعنى المخبإ في الفؤاد
وكل العارفين لهم رمـــــوز   و ألغاز تدق عن العـــــداد
ولولا اللغز كان القول كفرا   و أدى العالمين إلى الفســـاد

وقال ابن عربي في كتاب الفتوحات ومن عجيب الأشياء في هذه الطريقة بل يوجد في غيرها أنه ما من طائفة تحمل علما من المنطقيين والنحاة وأهل الهندسة والحساب والفلاسفة إلا ولهم اصطلاح لا يعلمه الدخيل فيهم إلا بتوفيق منهم لا بد منه إلا أهل هذه الطريقة خاصة فإن المريد الصادق إذا دخل طريقهم ولم يكن عنده خبر بما اصطلحوا عليه وجلس معهم وسمع منهم ما يتكلمون به من الإشارات فهم جميع ذلك حتى كأنه هو الواضع لذلك الاصطلاح وشاركهم في البحث في علمهم ولا يستغرب هو ذلك من نفسه بل يجد علم ذلك ضروريا فكأنه ما زال يعلمه ولا يدري كيف حصل له هذا شأن المريد الصادق وأما الكاذب فلا يشم له رائحة ولا يسمح له به قبل إخلاصه في الإرادة وطلبه له أحد من القوم ولم يزل علماء الظاهر في كل عصر يتوقفون في فهم كلام القوم والحاصل أن من أراد التصدي لمرتبة الشيوخة لا بد أن يكون له خبرة بمعاني كلام القوم واطلاع على اصطلاحاتهم فيقتدي بهم في جميع أفعالهم وأقوالهم وأحوالهم بالشفقة على خلق الله والنصيحة لعباد الله وكتم أسرار الله وينزل الناس منازلهم ويعطي كل ذي حظ حظه ويوفي كل ذي حق حقه ولا يتمكن من ذلك إلا بعد التبحر في علمي الحقيقة والشريعة والتضلع من علم المكاشفة وبعد إتقان علم الأحوال لسلوكه على مسلك حتى انتهى سلوكه وأذن له شيخه في التصدي للمشيخة وإلا كان ضالا مضلا قوله <u>والحد والأصول واللسانا والذكر والحديث والبرهانا</u> قوله والحد لعله أراد به علم المنطق لأنه الذي يبحث فيه عن أنواع الحدود وهو العلم الباحث عن التصورات والتصديقات من حيث يتوصل بها إلى مجهول من جنسها ويرسم باعتبار غايته بأنه علم تعرف به كيفية الوصول من المعلوم إلى المجهول وعلى أنه آلة فحده آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن من الخطإ في الفكر والقانون كلي تعرف به أحكام جزئياته إلى المجهول نحو كل فاعل مرفوع وتسمى تلك القواعد منطقا إذ بتحققها يتقوى العقل الناشئة عنه قوة النطق ويقال فيه العلم الذي يبحث فيه عن التصورات ومبادئها والتصديقات وأسبابها والتصور حصول الصورة في الذهن والتصديق الحكم على الشيء بما يتصور به والحكم إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه فمبادئ التصورات أقسام الدلالة الثلاثة الوضعية والتضمينية والاستلزامية وينقسم المفرد إلى جزئي وكلي وإلى ذاتي وعرضي وإلى داخل في نفس الماهية وخارج عنها ومبادئ التصديقات أنواع القضايا وعكوسها وينقسم الحكم إلى كلي وإلى كلية والمعرفات الحد والرسم التامان والناقصان وأما أسباب التصديق فالقياس بأنواعه المركب من مقدمتين وهو الأصل أو من مقدماته وقياس الاستقراء أضعفها وهو الاستدلال ببعض أجزاء الماهية على إثبات مجموعها وأول من استخرجه الفلاسفة وقيل هو من علوم اليونان فلما رأى الكتابيون أن لا يد لهم على هذه الأمة بالتناول أرسلوا إليهم هذا العلم فما دخلت

هذه العلوم على أهل ملة إلا وقع بينهم التخالف فكتبوه كتابة نفيسة في أوراق جديدة فأرسلوا به إلى المأمون بن هارون الرشيد فاستحسنه وعربه فوقع ما أراده أهل الكتاب من اختلاف بيضة الإسلام فخرج أهل الاعتزال وزاغ أهل الضلال وفيه يقول النابغة الغلاوي :

أول من ألف هذا القانون سليل هارون الرشيد المأمون

وقد تخالف فيه الأقدمون فحرمه ابن الصلاح والنووي والسيوطي وجزم الأكثرون بجوازه بل ندبه حتى قال الإمام الغزالي لا يوثق بعلم من لا يعرف علم المنطق وفيه يقول المغيلي وهذا الفن لا يعطيه الله بكماله إلا لأصفيائه حتى قال :

وما المنطق القانون إلا عبارة عن الحق أو تحقيقه عند جهله

وقد صرح بوجوبه من غير المالكية القطب الرازي والسيد الجرجاني واشتغل به الجماهير تدريسا وتأليفا وحثوا على تعليمه لكونه لا ينفك عنه علم من العلوم ولا يستغني عنه وبتحقق المهم منه تكون العلوم طوع اليد قالوا وأما من حرمه فمحمول على ما كان مخلوطا في ذلك العصر بالفلسفة وفروعها وفيه قيل ك

وإنما الخلاف فيه آنـــــــل إلى الذي دونه الأوائـــــل
أما الذي حرره من انتقـــــى فلا خلاف فيه قطعا مطلقـا

والمشهور أن ذلك باعتبار الناس فيحرم على قاصر الفهم عن إدراك دقائق المعاني لئلا يؤديه إلى الضلال ولا يحصل منه على منوال وأما غيره ممن كان راسخ الفهم ثاقب العقل قوي العقيدة وله خبرة وممارسة قبله لعلوم الدين فيجوز بل يندب له كما أشار إليه الأخضري بقوله :

والخلف في جواز الاشتغـال به على ثلاثة أقـــــــوال
فابن الصلاح والنواوي حرما وقال قوم ينبغي أن يعلمـــا
والقولة المشهورة الصحيحة جوازه لكامل القريحـــــة
ممارس السنة والكتـــــاب ليهتدي به إلى الصـــواب

قوله والأصول يعني علم الوصول وهو أدلة الفقه الإجمالية وكيفية الاستنباط منها وشروط الاجتهاد والأدلة الإجمالية هي التي لا تعين مسألة جزئية كقاعدة مطلق الأمر والنهي وفعله صلى الله عليه وسلم والإجماع والقياس والاستصحاب والعام والخاص والمطلق والمقيد ونحوها وأول من ألفه الإمام الشافعي محمد بن إدريس رضي الله عنه وقد كان قبله سلاقة والبحث فيه عن القواعد العربية والقضايا العقلية التي يتقوى بها على استخراج الأحكام من محالها عند النوازل والمراد بالقواعد العربية أقسام الكلام فإنه ينقسم إلى منطوق ومفهوم وينقسم المنطوق إلى خبر وطلب والطلب إلى أمر ونهي واستفهام وتمني وعرض وتحضيض فمقتضى الأمر لغة طلب الفعل من غير نظر إلى إيجاب أو ندب وهما مقتضاه شرعا وقد يرد لغيرهما ومقتضى النهي لغة طلب الكف عن الفعل مطلقا وشرعا التحريم والكراهة وقد يرد لغيرهما والقرائن تعين المراد في جميع ذلك وينقسم اللفظ أيضا إلى حقيقة ومجاز وإلى صريح وكناية وإلى عام وخاص ومطلق ومقيد وإلى نص ومحتمل والمحتمل إلى ظاهر ومؤول وينقسم إلى مجمل ومفصل وإلى مشكل ومبين وإلى ناسخ ومنسوخ وينقسم إلى متواتر وآحاد والمتواتر ما يوجب العلم والآحاد يوجب الظن إلى غير ذلك من تقسيمات الألفاظ ومحتملاتها وأما القواعد العقلية فكقياس الشيء على الشيء إذا ساواه في العلة والحكم وكقولهم الأصل بقاء ما كان على ما كان والأمور بمقاصدها والضرر يزال وارتكاب أخف الضررين والمشقة تجلب التيسير واليقين لا يرفع بالشك والعرف محكم فيما

لم يخالف فيه نصا ولا إجماعا قيل ولا قياسا ونحو ذلك من القواعد ويشتمل من الأصول على أربعة كتب الكتاب وكتاب السنة وكتاب الإجماع ويلحق بها القياس وشروط الاجتهاد قوله واللسان أراد به علوم اللسان العربي وهي أنواع منها مدلولات الألفاظ من غير نظر إلى أحكامها وقد تكفل بذلك الجوهري في صحاحه وصاحب القاموس وأضرابهما ويحد هذا العلم بأنه علم تعرف به الموضوعات اللغوية وقال ابن السبكي هو اللفظ الدال على المعاني وتعرف بالنقل تواترا وآحادا واستنباطا وهي توقيفية علمه الله تعالى نبيه آدم عليه السلام وقيل اصطلاحية اصطلح عليها البشر ولا تشترط المناسبة بين اللفظ ومدلوله خلافا لعباد الدميري وحكى القرافي عن بعضهم أنه كان يدعي أنه يعرف المسميات من الأسماء فقيل له مسمى أدغاغ فقال لم يكن هذا اللفظ من كلام العرب فتأمل وقال هذا اللفظ أجد فيه يبسا شديدا وصلابة وأراه اسما للحجر وهو كذلك في لغة فارس انتهى ومنها النحو وهو علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب فيبحث فيه عن أحوال أواخر الكلم إعرابا وبناء وأول من وضعه الإمام علي كرم الله وجهه فأشار إلى أبي الأسود الدؤلي فقال الاسم ما دل على المسمى والفعل ما دل على حركة المسمى والحرف ما دل على معنى ليس من ذينك وانح ذلك النحو يا أبا الأسود بذلك سمي النحو ومنها علم التصريف وهو علم يبحث فيه عن أبنية الكلم من اسم وفعل ومصدر واسمه وأحوالها من صحة وإعلال واعتلال وإبدال وإدغام وزيادة وحذف وجميع ذلك لغرض لفظي أو معنوي ومنها علم المعاني وهو علم تعرف به أحوال اللفظ العربي التي يحصل بها بمراعاتها مطابقة اللفظ لمقتضى الحال أي السبب الحامل على اعتبار تلك المعاني الزائدة على أصل التركيب ويبحث فيه عن المدلول عليها بمفردات التركيب المؤثرة في معاني التركيب معاني أخر مدلول عليها بطريق الالتزام إذ البلاغة في هذا العلم وما معه من البيان والبديع من مطابقة الكلام الفصيح لمقتضى الحال من الإتيان بكل من التقديم أو التأخير أو الذكر أو الحذف أو التعريف أو التنكير ونحوها كل في مقامه المناسب له وهذا العلم منحصر في ثمانية أبواب أحوال الإسناد والمسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل والقصر والإنشاء والوصل والفصل والإنجاز والإطناب والمساواة وإنما انحصر في هذه الثمانية لأن الكلام إما خبر أو إنشاء والخبر لا بد له من إسناد ومسند إليه وقد يكون له متعلقات إذا كان فعلا أو شبهه والتعلق قد يكون بقصر أو لا والجملة إن قرنت بغيرها قد تعطف فتوصل وقد لا تعطف فتفصل والكلام البليغ إما زائد على أصل الفائدة فذلك الإطناب أو لا يزيد فمساواة أو ينقص مع تأدية المعنى فإيجاز فانحصر فيها ومنها علم البيان وهو علم يعرف به كيفية إيراد المعنى الواحد لطرق مختلفة وضوحا وخفاء ويبحث فيه عن أركان التشبيه من مشبه ومشبه به وآلة تدل عليه ووجه يشتركان فيه وعن حقائق الأركان وأقسام التشبيه وعن أقسام المجاز وعلاقة وكيفية تقابله للحقيقة وعن الكناية وأقسامها .

فائدة : الفرق بين المعاني والبيان أن المعاني راجعة إلى مقتضى الحال في الدلالة العقلية .

ومنها علم البديع وهو علم يعرف به تحسين وجوه الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى الحال والخلو عن التعقيد وأنواعه تزيد على المائتين قيل بل إنه قياسي فمن شاء أن يزيد شيئا ما تستملحه الطباع وتستحليه الأسماع فيفعل ومن أنواعه المطابقة وهي الجمع بين الضدين نحو (يحيي ويميت) (أتحسبهم أيقاظا وهو رقود) (فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا) إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة وفي أشعار العرب وأراجيزهم وأسجاعهم وخطبهم ومن علوم اللسان العربي علم العروض وسمي عروضا لأن الشعر يعرض عليه أي يقاس وأول من استخرجه الخليل بن أحمد الفراهيدي وسببه أن سيبويه كان يقرأ عليه علم النحو فلما بلغ فيه الغاية واستخرج منه بالمقاييس ما لم يكن عند الخليل رغب فيه الناس عن الخليل فخرج الخليل إلى بيت الله الحرام فسأل الله عز وجل أن يلهمه علما لئلا تفوته فضيلة التعليم فألهمه العروض فكان يجلس وحده لاستخراجه وتدبره ويضع نقطا وخطوطا يشير بها إلى المتحرك والساكن حتى ادعى ولده أنه قد جن فأنشد مخاطبا لابنه :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت أجهل ما أقول عذلتك
لكن جهلت مقالتي فعذلتنـــي وعلمت أنك جاهل فعذرتـك

وقد ألف العلماء قديما وحديثا في هذا الفن ما بين مطول ومقصر ولما كان بيت الشعر التحريك لا يقوم إلا بالأسباب والأوتاد قاسوا عليه بيت الشعر فسموا أجزاء أجزائه بالأسباب والأوتاد فالسبب نوعان ضعيف وثقيل فإن كان متحرك بعده ساكن نحو قلت فذلك سبب خفيف وإن كان متحركان نحو مع فهو سبب ثقيل وأما الوتد فهو ثلاثة حروف وهو نوعان أيضا فإن كانا متحركان بعدهما ساكن نحو دعا فهو وتد مجموع وإن كان الساكن بينهما نحو قال فهو وتد مفروق وبمجموع الوتد والسبب يتم الجزء إلا أنه لا يتعدد في الجزء والسبب قد تعدد فيه نحو مفاعيل فأجزاء التفعيلات عشرة والبحور خمسة عشر وقد نظم بعضهم تقسيم الأجزاء بين البحور فقال :

يا سائلا كيف اتزان الشعـــــر	فهاك ميزانا لكل بحـــــــــر
زن الطويل بفعـــــــولن ومفا	عيلن زن البسيط مستفعل بفـــا
وبمفاعيلن مـــــن الوافر زن	و كامل بمتفـــــــاعل وزن
وفاعلاتن رمل مستفلـــــــن	لرجز وهزج قد اتـــــــزن
قـــــــل بمفاعيلن بدا مكررا	مكتنفا بفاعلاتن اذكـــــرا
مضارعا مجتذهم بدون ميـــن	مستفعلن وفاعلاتن مرتيـــن
مستفعل وفاعلات بعـــــده	و قبله وزن الخفيف وحـــده
وللسريع هذه مفعـــــولات	مستفعلن مستفعلن مفعـــولات
وذا الأخير وسطا للمنســـرح	بين اللذين قبله لينشـــــرح
واجعله قبل في اتزان المقتضب	لمتقارب فعـــــولا قد وجب
وثمنن ذا والثلاثـــــة الأول	و غيرها ست فذا النظم كمـــل

قد زاد بعض المتأخرين بحرا سادسا سماه المتدارك وهو مثمن في دائرة المتقارب ويوزن بفاعل كقول الشاعر :

لم يدع من مضى للذي قد غبر فضل علم سوى أخذه بالأثر

ويدخله الخبن وهو حذف ثانيه الساكن وإن خبن جميع أجزائه سمي الخبل وهو ركض الخيل كقول الشاعر:

وبكيت على طلل طربا فشجاك وأحزنك الطلل

وتسكن فيه عين فاعل بعد خبنه فيصير فعل كقول الشاعر :

مالي ما إلا درهـــــم أو برذوني ذاك الأدهم

وقد يجتمعان كقول الآخر :

يا ليل الصب متى غده وقيام الساعة موعده

وقول الآخر :

اشتدي أزمة تنفرجـــي	قد آذن ليلك بالبلـــــــج
وظلام الليل له ســـرج	حتى يغشاه أبو الســـرج

إلى آخر القصيدة ولما كانت أسباب بيت الشعر تتحرك بأدنى متحرك وأوتاده ثابتة كذلك أتت أسباب بيت الشعر وأوتاده فأوتاده لا يعتريها الزحام وإنما يعتري الأسباب والزحاف تغير الأسباب في حشو البيت بالحذف تارة وتسكين المتحرك نارة ولهم اصطلاحات في كل نوع من الزحاف كالطي والخبن والإضمار والحذف والوقص والعصر والقبض ونحوها وجميعها غير مستحسن في الشعر وأما العلل وهي ما يعتري آخر البيت من زيد أو سلامة أو نقص منهما فيعتر الأوتاد والأسباب معا فمنها الترفيل والتذييل والتسبيع والغصب والقصر والقطع والحد والصلم والكشف ونحوها ومن علم العروض علم القوافي وهي أحكام أواخر الأبيات فمنها الإكفاء والإجازة والإقواء والإسراف والإصراف والخروج والرده والتأسيس ومنها السناد وله أنواع وكلها من عيوب القوافي وإنما لم أتعرض لتفسير أسماء الزحاف والعلل والقوافي لأن ذلك يخرج بنا عن المقصود من الاختصار إذ المراد تبيين حقائق هذه العلوم التي أشار إليها ابن البناء ولو أردنا استقصاءها لأفردنا كل فن بتأليف أو أكثر .

تنبيه : اعلم أن صاحب القاموس كثيرا ما يلزم تفسير أسماء اصطلاحات أهل العروض وذلك يستلزم أنها من أصل الوضع اللغوي مع أن هذا الفن محدث كما تقدم فانظر مراده بذلك ومن علوم اللسان العربي علم الخط وهو علم يبحث فيه عن كيفية كتابة الألفاظ ومراعاة حروفها لفظا وأصلا وزيادة ووصلا وتصحيحا وإبدالا وقد ألف فيه منهم أبو القاسم الزجاجي واستوفاه السيوطي في خاتمة كتابه جمع الجوامع في النحو وأشار إلى طرف منه في النقاية ولم تكن الكتابة أصلا من شأن العرب لأنهم كانوا أميين بل كانت للكتابيين فلما كثر العرب واستقامت لهم الدولة من النعمان بن المنذر الغساني احتاجوا إلى الكتابة فكتبوا الرسائل والأشعار على حسب ما في نفوسهم من علم القواعد العربية المستنبطة من المناسبة العقلية فحذفوا من الحروف ما علم ضرورة مع الحذف كالألف من اسم الله ومن الرحمان إذا كان معرفا بأل ومن كلم علم فوق ثلاثي عربيا كان أو عجميا كصالح ومالك وإبراهيم وإسحاق ما لم يلبس بغيره كعامر إذا حذف ألفه التبس بعمر وتحذف الألف أيضا من ذلك وثلاثين ومن لكن مخففا أو مشددا ومن جمع السلامة ومن التثنية وتحذف الواو من نحو داوود والياء من نحو النبيئين وفرقوا بين اللذين واللتين بصغة التثنية والذين بصغة الجمع فكتبوا المثنى بلامين والجمع بلام واحدة وفرقوا بين التي بالإفراد واللاتي بالجمع بأن جعلوا للمفرد لاما واحدة وللجمع لامين وكتبوا نحو رحمة ونعمة بالهاء وكتبوا قمت وقامت بالتاء وكتبوا المدغم في كلمة كرد بحرف واحد ومن كلمتين بحرفين نحو (ماليه هلك) وكتبوا الهمز إن كان أولا بألف وإلا فبالحرف الذي يخفف به من واو أو ياء أو ألف فإن كانت ساكنة كتبت بمجانس حركة ما قبلها كآدم وإيلافهم و اؤتمن ويأكل وبئس ويؤمن ونحو ذلك مما هو معلوم في علم التصريف وحذفت الهمزة من البسملة تخفيفا ومن ابن بين علمين وتوصل ما إن ألغيت نحو (فبما رحمة من الله) أو كانت كافة عن العمل نحو كأنما وربما أو كانت مع كل إن عمل فيها ما بعدها نحو (كلما دخل عليها زكرياء المحراب) وإلا فصلت نحو (من كل ما سألتموه) وتوصل بفي ومن إذا كانت موصولة نحو (فيما هم فيه يختلفون) (مما آتاكم) وإن كان استفهامية وصلت بهما وبعم نحو فيما جئت مما قدومك وعما تسأل وتوصل من الاستفهامية بفي فقط نحو فيمن رغبت وإن كانت موصولة وصلت بمن وعن نحو استفدت ممن قرأت عليه ورويت عمن رويت عنه ويزاد الألف بعد واو الجمع في الفعل كضربوا بخلاف نحو زيد يدعو وضاربوا زيد وأولوا الفضل وزيد الواو في أولوا و أولات وأولئك وبعد عمرو مرفوعا أو مجرورا لا منصوبا فرقا بينه وبين عمر وتكتب الألف بالياء رابعة فصاعدا في اسم أو فعل كمصطفى بالألف وكذلك تكتب يصطفى وزكى ومزكى إلا أن يكون قبلها ياء كالدنيا فتكتب بالألف وكذا تكتب بالياء في الثاني إذا كانت مبدلة عنه كفتى وسعى ورمى أو مجهولة الأصل إذا أميلت كمتى أو كانت بدلا عن واو مجهولة كتبت بالألف كدعا وغزا وإذا والحروف وهذا بعض اصطلاح العرب في علم الخط لأنه لم يضبطوه ضبطا محكما لا عدول عنه أنهم وكلوه إلى السلاقة المركوزة في النفوس فكان يكتب الكلمة في أول مكتوبه بوجه وفي آخره بوجه آخر فلما نزل القرآن العظيم وأسلم العرب وكتبوا المصاحف اختلفوا في رسمها كما كانوا قبل ذلك فكان سبب اختلافهم الاختلاف في القرآن مع ما انضم إليه من اختلاف قواعد اللسان العربي وقد خاف عثمان بن عفان رضي الله عنه زمن خلافته الضلال على الأمة فجمع المصاحف وجمع عبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وزيد بن ثابت الأنصاري وأمرهم بنسخ المصحف فرسموه ولم يتعرض واحد منهم لصاحبه فيما كان من جهة الرسم ولا شاوروا عليه وقد كتبوه على غير قاعدة مضبوطة ولذا أجمع

أئمة الخط على أن خط المصحف غير مقيس فقد كتبوا فيه ما لا يؤول إلى قاعدة عربية كالواو من أولوا وأولات وأولئك وكالألف في مائة وفي لا أذبحنه وكالياء في بأييد وفرقوا بين كلمات لا فارق بينها في المعنى نحو يا أيها النبي ويا أيها الناس ونحوهما كتبوا ألفا بعد الهاء ولم يكتبوه في (وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون) ولا في (أيه الساحر) وكتبوا نعمة ورحمة في مواضع بالتاء وفي أكثر منها بالهاء لكن يجب اتباع الرواية في رسم المصحف خوف الاختلاف وفيه يقول بعضهم :

والرسم في المصحف لا ينقاس إذ لم يكن لرسمه أســـــاس
واسلك سبيل ما رواه النـــاس منه وإن ضعفه القيـــــاس

فوائد :
الأولى : لا يقاس أيضا الخط في علم العروض لأن التنوين يكتب نونا وصرف رويه إذا كان ألفا ممدودة كتبت بألفين .
الثانية : يندب تحسين الخط وتبيينه كما قيل إن حسن الرسم يزيد المسألة وضوحا ومن توضيحه أن يشكل ما قد يخفى ولو على المبتدئ لا ما لا يخفى على أحد كالفتح قبل الألف ويجعل تحت الحرف المهمل حرفا صغيرا مثله مبالغة في الإيضاح ودفع توهم السهو عن النقض ويكره الخط الرقيق لأنه يخون صاحبه أحوج ما يكون إليه عند كبر السن وضعف البصر إلا لضيق الكاغد أو يكون رحالا بكتبه يحملها معه فيكتبه دقيقا ليخف حملها قاله السيوطي في شرح النقاية .
الثالثة : أول من أظهر الخط العربي بمكة أبو سفيان تعلمها من رجل من أهل الحيرة وذلك من رجل من أهل الأنبار وأولئك عن حمير بن سبأ بن قحطان بن هود وكانوا قبل حمير يكتبون بالمسند وهو حروف مقطعة وسموه مسندا لأنهم يسندونه لهود عليه السلام وأول من وصل الحروف بعضها ببعض في كلمة إسماعيل عليه السلام ومنه ظهر الخط العربي وذلك أن لآدم عليه السلام علم اللغات كلها ولم تعلم ذريته غير السريانية قال وهب بن منبه أنزل الله على شئث بالسريانية خمسين صحيفة ولم يزل السرياني إلى زمن نوح عليه السلام فأنزل الله صحيفة ولم يفهمها ولم يعلمه الله ما فيها وهي أول ما أنزل الله من اللسان العربي وكانوا يتحفظون عليها كما أمر ولم يفهمها أحد إلى زمن هود عليه السلام قاله الشاطبي في تفسيره قوله : والذكر أراد به القرآن العظيم أي معرفة علومه ويحد بأنه الكلام المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للإعجاز بسورة منه قيل أو بآية وتحرم قراءته بالعجمية وروايته وإن جازت في الحديث المقصود من لفظ القرآن دون لفظ الحديث وعلوم القرآن كثيرة تتعذر الإحاطة بعددها فضلا عن تحقيق كل نوع منها فلنشرح النزر من ذلك فمنها علم التفسير ويحرم تفسيره بالرأي لقوله عليه السلام : (من قال في القرآن برأيه وبما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار) رواه الترمذي ويجوز تأويله بالقواعد للعالم بالعلوم التي يحتاج إليها كعلوم العربية ليعرف بعلم النحو معاني تركيب ألفاظه ويفهم به ما فيه من تقديم وتأخير وفصل بين المتلازمين كالفعل وفاعله والمبتدأ وخبره والموصوف وصفته ويعرف باللغة معاني المفردات وبالتصريف ما يتغير به المعنى بين المشتق والمشتق منه في المعنى بزيادة حرف أو حرفين أو نقصانهما نحو غفر واستغفر فمعنى الأول أن الله تعالى غفر ذنب عبده له ومعنى الثاني أن العبد سأل ربه المغفرة فإن زيادة السين والتاء في المشتق دلت على مغايرة المشتق منه في المعنى بأن جعلت الأول فعل الله تعالى والثاني فعل العبد ونحو ذلك ويعلم بعلم المعاني ما تشير إليه مفردات التراكيب من أسرار المعاني كأن يعرف من لفظ التوكيد إنكار المخاطب أو غرابته أو مخالفته أيضا لذلك المخاطب فالأول نحو (إني رسول الله إليكم جميعا) ونحوها مما ينكره المخاطبون والثاني (يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل) فإن المؤمنين لا ينكرون ما أخبر به سبحانه ولا يشكون فيه وإنما أكد لهم الحكم لأن ذلك بعيد عندهم مخالف لظنونهم فافهم ونحو (أصلواتك تأمرك) فإن معنى الاستفهام وإضافة الصلوات إليه مشعر باستهزائهم به وبالصلوات إلى غير ذلك من أسرار المعاني التي تكفل بها علم المعاني ويعرف بعلم البيان تشبيهاته وأمثاله ومجازاته وكناياته وأسرار كل ذلك يعرف بعلم الوصول وموضوع الأمر والنهي لغة وأحكام العموم والخصوص والإطلاق والتقييد والناسخ والمنسوخ والمجمل والمفصل والمجمل والمبين والمحكم والمتشابه إلى غير ذلك من محتملات الألفاظ ويعرف بعلم

ما يقوى به أحد التأويلين أو التأويلات ويعرف بعلم السر ما يشير إليه من القصص كقصة أصحاب الأخدود وعاد وثمود وغيرهم ولا بد من معرفة ما فيه من المبهمات نحو هذان خصمان فإن تعيين الخصمين لم يتوقف عليه شيء من هذه العلوم وهو محتاج إليه وقد ألف جماعة منهم السهيلي والشاطبي والسيوطي مبهمات القرآن مفردة نحو (والذي تولى كبره منهم) (أو كالذي مر على قرية) ونحو ذلك فمن حصل هذه العلوم أمكنه التأويل وليس تأويله إياه من الرأي المنهي عنه بقوله صلى الله عليه وسلم (من قال في القرآن برأيه وأصاب فقد أخطأ ومن قال فيه برأيه وأخطأ فقد كفر) أخرجه أبو داوود قال شارح النصيحة : وليس من الآراء أن يتكلم النحوي فيه بما تقتضيه القواعد البيانية ويتكلم بما تقتضيه ونحو ذلك .

فائدة : الفرق بين التأويل والتفسير إن التفسير هو الشهادة على الله تعالى والقطع أنه عني بهذا اللفظ هذا المعنى فلم يجز إلا بنص النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الذين شهدوا نزول الوحي وعرفوا معناه بقرائن الأحوال وأما التأويل فهو ترجيح أحد المحتملات بمرجح بدون القطع والشهادة على الله بالتعيين فاغتفر لذلك ولهذا قد يختلف الصحابة والسلف في تأويل آيات فلو كان عندهم إلى النزول كالمكي والمدني والسفري والحضري والليلي والنهاري والشتائي والصيفي والفراشي والنومي كسورة الكوثر نزلت عليه صلى الله عليه وسلم وهو نائم ومنها النزول وأسبابه فأول ما نزل بمكة اقرأ باسم ربك ثم الكوثر وويل للمطففين أو البقرة وآخر ما نزل آية الكلالة وآية الربا وآخر براءة وسورة النصر ومنها ما يرجع إلى السنة فمنه التواتر وهو قراءة السبعة نافع وابن كثير وأبو عمر وأبو عامر وعاصم وحمزة والكسائي ومنها الآحاد وهو قراءة الثلاثة المتممة للعشرة أبي جعفر ويعقوب وخلف ومنه الشاذ وهو ما لم يشتهر من قراءة التابعين لغرابته أو لضعف إسناده ولا يقرأ بغير التواتر لكن يجوز العمل إن جرى مجرى التفسير كقراءة ابن مسعود (وله أخ أو أخت) من الأم ومنها ما يرجع إلى الرواة بالصفة الأولى كعثمان وعلي وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبي الدرداء ومعاد بن جبل وأبي زيد رضي الله عنه فهؤلاء جمعوه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في الصحيح ثم بعد هؤلاء أبو هريرة وابن عباس وعبد الله بن السائب أخذوا عن أبي واشتهر من التابعين يزيد بن القعقاع وعبد الله بن هرمز الأعرج ومجاهد وسعيد بن زبير وعكرمة مولى ابن عباس وعطاء بن يسار وابن أبي رباح والحسن البصري وعلقمة بن قيس وزر بن حبيش وعبيدة بفتح العين السلماني وعن هؤلاء أخذ السبعة فنافع أخذ عن أبي حجر وابن كثير عن عبد الله بن السائب وأبو عمرو عن مجاهد وأبي جعفر معا وابن عامر عن أبي الدرداء وعاصم عن زر وحمزة عن عاصم والكسائي عن حمزة ومنها ما يرجع إلى الأداء كالوقف والابتداء والإمالة والمد وتخفيف الهمزة والإدغام وقد بسطت هذه الأنواع الستة في كتب النحو والقراءة ومنها ما يرجع إلى اللفظ وهو سبعة الغريب ومرجعه النقل كالمعرب وهو لفظ استعمله العرب من غير لغتهم كالمشكاة للكوة غير النافذة بالحبشية والسجيل للطين المشوي بالفارسية والقسطاس للعدل بالرومية وقد جمع السيوطي ستين لفظا منها وأنكرها الجمهور وقالوا إنها عربية وافقت فيها لغة العرب لغة غيرهم ومن اللفظ المجاز وهو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له وهو كثير والاشتراك كالقرء للحيض والطهر والمترادف كالإنسان والبشر والاستعارة وهو تشبيه خال من أداته نحو (أو من كان ميتا فأحييناه) أي ضالا فهديناه استعير الموت للضلال والكفر والإحياء للإيمان والهداية ومنها ما يرجع إلى المعاني المتعلقة بالأحكام وهي أربعة عشر العام الباقي على عمومه ولم يوجد منه في القرآن إلا (والله بكل شيء عليم) والعام المخصوص والعام الذي أريد به الخصوص والعام الذي خصصته السنة والمجمل والمؤول والمفهوم موافقة ومخالفة والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ والإيجاز والإطناب والمساواة والقصر إلى غير ذلك من غير القرآن قوله والحديث يعني علمه وهو قوانين يعرف بها أحوال السند والمتن من صحة وحسن وضعف وعلو ونزول وكيفية التحمل وصفات الرجال وأسمائهم إلى غير ذلك وأول من صنف في هذا الفن القاضي أبو محمد الزمهرمزي عمل فيه كتاب المحدث الفاضل ولم يستوعبه ثم الحاكم أبو نعيم الأصبهاني ثم الخطيب مصنف الكفاية في قوانين الرواية وصنف فيه كتبا كثيرة حتى قيل إن جميع المحدثين عيال لكتبه حتى جاء الشيخ أبو الصلاح فألف مختصره المشهور واعتنى بمؤلفات الخطيب وجمع متفرقاتها ولم أشتاتها فصار على كتابه المعول وإليه يرجع كل مختصر ومطول وها أنا أذكر طرفا من هذا الفن يناسب المقام من التقصير لقصور همم أهل العصر حتى فاقت ركعتي الفجر فاعلم أن المتن

هو لفظ الحديث والسند طريقه والرجال الذين رووه والمتن إن انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مرفوع وإلى الصحابي فموقوف أو إلى تابعي فمن بعده فمقطوع وإن تعددت طرقه بلا حصر فمتواتر وإلا فآحاد ثم الآحاد إن رواه أكثر من اثنين فمشهور وباثنين فعزيز وبواحد فغريب ثم إن الآحاد منه مقبول وغير مقبول فالمقبول ما نقله عدل تام الضبط عن مثله اتصل سنده من غير علة ولا شذوذ فيسمى الصحيح فإن خف ضبط رواته مع العدالة وما بعدها سمي حسنا والصحيح والحسن كلاهما حجة ويتفاوت الصحيح في القوة بحسب ضبط رجاله واشتهارهم بالحفظ واحتياطهم ولهذا اتفقوا أن أصح الحديث ما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم ثم ما انفرد به البخاري ثم مسلم ثم ما كان على شرطهما ثم على شرط البخاري ثم على شرط مسلم وأن صحيح ابن خزيمة أصح من صحيح ابن حبان وابن حبان أصح من مستدرك الحاكم لتفاوتهم في الاحتياط وأصح الأسانيد الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر ثم إن المقبول بأرجح منه شاذ وإن سلم من المعارضة فمحكم وإن لم يسلم منها وأمكن الجمع فهو مختلف الحديث وقد ألف فيه الشافعي منفردا وإن لم يمكن الجمع وعرف الأخير فالأخير ناسخ والأول منسوخ وإن لم يمكن الجمع وجهل التاريخ رجح أحدهما بإحدى المرجحات كمصاحبة العمل والفرد إن وافقه غيره فمتابع وإن وافقه متن يشبهه فشاهد وأما غير المقبول ويقال له المردود فأنواعه كثيرة منه ما سقط بعض رواته فإن كان الساقط من أول السند فمعلق وبعد التابعي فمرسل فإن خفي السقوط فمدلس ومنه الموضوع وهو المكذوب به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعرف بإقرار الواضع وبقرائن يعرفها من له ملكة قوية واطلاع تام مثل ركاكة الألفاظ ومناقضة لنص القرآن أو السنة المتواترة يروى أن رجلا كان يضع الأحاديث فأخذه الملك ليقتله فقال دعني حتى أمحو ما وضعت عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال الملك كلا إن هنا رجالا ينزعون كلامك من كلامه كما تسل الشعرة من العجين وإن كان الراوي متهما بالكذب فهو متروك أو بفسق أو بفحش أو غلط فمنكر أو وهم فمعلل أو مخالفة بتغيير السند فمدرج أو بتقديم وتأخير فمقلوب أو بإبدال راو براو آخر فمضطرب أو بتغيير لفظ فمصحف أو بشكل فمحرف إلى غير ذلك من اصطلاحات هذا الفن وأحكامه كمعرفة الرواة وطبقاتهم وأنواع الرواية وألفاظها .

تتمة : الأفضل الإتيان بلفظ الحديث تاما امتثالا لقوله صلى الله عليه وسلم (نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه) لأن السامع قد يستنبط أحكاما من جواهر ألفاظ الحديث ويجوز لعالم أراد الاختصار أن يروي الحديث بالمعنى بشرط أن يأتي بلفظ مطابق للفظ الحديث وبشرط أن لا يكون الحديث مما تعبد بلفظه ويجوز له أيضا أن يحذف بعضه اختصار كما يفعل البخاري يقطع الحديث الواحد بين بابين أو أكثر ولا يجوز حذف ما له تعلق بالمذكور كالاستثناء والشرط قاله السيوطي في شرح النقاية قوله والبرهان أراد به علم الكلام وهو علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه وقال ابن عرفة هو العلم بأحكام الألوهية وإرسال الرسل وصدقهم في كل أخبارهم وما يتوقف عليه شيء من ذلك خاصا به وتقرير أدلته بقوة مظنة لرد الشبه وحل الشكوك انتهى فقال السيوطي هو علم يبحث فيه عما يجب اعتقاده وهو قسمان قسم يقدح الجهل به في الإيمان كمعرفة الله تعالى وصفاته الثبوتية والسالبية والرسالة والنبوءة وأمور المعاد وقسم لا يضر الجهل به كتفضيل الأنبياء على الملائكة ولذا قال السبكي لو مكث الإنسان مدة عمره ولم يخطر بباله تفضيل النبي على الملك لم يسأله الله عنه انتهى وأول من وضعه أبو الحسن علي بن إسماعيل نسب إلى جده أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان معتزليا حتى رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فرجع إلى مذهب أهل السنة فقيل لهم الأشاعرة وكان قبله يلقبون بالمثبتة إذ أثبتوا ما نفته المعتزلة وقال اللقاني في شرح الجوهرة كلام الأوائل في التوحيد كان مقصورا على الذات والصفات والنبوءات والسمعيات ثم حدثت بعدهم طوائف المبتدعة فأوردوا شبها على ما قرره الأوائل وألزموهم الفساد في كثير من المسائل فتصدى المتأخرون لتلك الشبه فاضطروا إلى إدراجها في كلامهم ليمتحنوا بمقاصدها ويتمكنوا من إيضاح مفاسدها ويسهل عليهم تمييز صحيحها من فاسدها وبهذا يظهر عذر المتأخرين في خلط هذا الفن بالفلسفيات ونحوها وأنهم فعلوا ذلك للضرورة فلا لوم عليهم وأما تحذير من حذر من كتبهم فمحمول على القاصرين لا على من فيه أهلية الرسوخ والتمكين وفي بدائع المعاني في شرح عقيدة الشيباني كانت الصحابة والتابعين رضي الله عنهم لصفاء عقائدهم ببركة صحبة النبي صلى الله عليه وسلم وقرب العهد بزمانه مستغنين عن تدوين هذا العلم كما استغنوا عن تدوين غيره من

العلوم إلى أن حدثت الفتن بين المسلمين وحصل البغي على أئمة الدين فظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهوال فاشتغل العلماء بالنظر وتمهيد القواعد لرد الضلال انتهى وقال الشعراني في كتاب الدرر اعلم أن علماء الإسلام ما وضعوا كتب العقائد ليثبتوا في نفوسهم العلم بالله تعالى وإنما وضعوها ردا للخصوم الذين جحدوا الإله والصفات والرسالة والبعث ونحو ذلك مما لا يصدر إلا عن كافر فطلب علماء الإسلام إقامة الأدلة على هؤلاء ليرجعوا لاعتقادهم وجوب الإيمان بذلك لا غير وإنما لم يبادروا إلى قتلهم رجاء رجوعهم إلى الحق فكان البرهان عندهم بالمعجزة التي ينساقون إلى دين الإسلام بها ومعلوم أن الراجع بالبرهان أصح إيمانا من الراجع بالسيف إذ السيف قد يحمل على النفاق والبرهان ليس كذلك فوضعوا علم الجوهر والعرض ويكفي المصر الواحد واحد يقوم بذلك واعلم أن الذي يقوم بهذا الفن يجب أن يكون من أهل الكشف الغيبي التام ولذا قال المحلي ومحل نهي الإمام الشافعي وغيره عن الاشتغال بعلم الكلام إنما هو في حق من يتكلم فيه بالنظر والفكر إذ الفكر كثير الخطإ في الإلهيات وأما من يتكلم في علم التوحيد ولوازمه من طريق الكشف فلا يدخل في نهي السلف لأن صاحب الكشف من شأنه أن يتكلم على الأمور من حيث ما هي عليه في نفسها فلا يخطئ نقله الشعراني في الدرر .

فإذا تقرر هذا علمت أن هذه العلوم التي أشار إليها ابن البناء ليست من شروط شيخ التربية ولا تلزمه إذا قام بها غيره لأنها كلها فروض كفاية بل بعضها قال المحققون إنه يحرم الاشتغال به كعلم المنطق وعلم الكلام وفي حاشية بناني على الزرقاني عند قول خليل في باب الجهاد كالقيام بعلوم الشرع ما نصه ما ذكره الزرقاني من توقف العقائد على المنطق وتوقف إقامة الدين عليه غير صحيح وقد قال الغزالي في الإحياء ذهب مالك والشافعي وَأحمد بن حنبل وجميع أهل الحديث من السلف إلى أن العلم للكلام والجدل بدعة وحرام وأن العبد أن يلقى الله بكل ذنب خير من أن يلقاه بعلم الكلام ونهى عن قراءة المنطق الباجي وابن العربي وعياض وقال الشاطبي في الموافقات في القضايا الشرعية إن علم المنطق مناف لها لأن الشريعة لم توضع إلا على الشريعة الأمية وقال في الإحياء معرفة الله سبحانه لا تحصل بعلم الكلام بل يكاد الكلام يكون حجابا عنها ومانعا منها وقال أيضا ليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي يشاركه فيها العوام وإنما يتميز عنهم بصنعة المجادلة انظر سنن المهتدين والحطاب فإن لم يكن المنطق منهيا عنه فلا أقل من أن يكون جائزا كما اختاره ابن السبكي وأما الوجوب فلا سبيل إليه انتهى كلام بناني وفي النقاية للسيوطي أما علم الكلام وهو ما تنصب فيه الأدلة العقلية وتنقل فيه أقوال الفلاسفة فذلك حرام بإجماع السلف نص عليه الشافعي ومن كلامه فيه لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام وكان يقول إياك وعلم الكلام وعليك بعلم الفقه فلأن يقال لك أخطأت خير لك من كفرت وفي فرائد الفوائد لليدالي قال ابن خويزمنداد إن كتب الكلام لا يجوز تملكها وأن الإجارة فيها باطلة لأن فيها الضلالة والبدع والإلحاد في أسماء الله تعالى وصفاته فيجب إتلاف كتبه بالغسل قال وكذا كتب الأغاني واللهو وشرع السخفاء وكتب الفلاسفة والعزائم وقال الشيخ محيي الدين بن عربي في كتاب الفتحات ولا يخفى أن الشخص إذا كان مؤمنا مقرا بالقرآن قاطعا بأنه كلام الله فالواجب عليه أن يأخذ عقيدته من غير تأويل ولا عدول إلى أدلة العقل المجردة عن الشرع فإن القرآن سمعي قد أثبته سبحانه وتعالى عن أن يشبه بشيء أو يشبهه هو شيء فقال (ليس كمثله شيء) وقال (سبحان ربك ربك العزة عما يصفون) وأثبت للمؤمنين الرؤية في الآخرة وقال (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وأثبت للكافرين ضدها فقال (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وأثبت كونه عالما فقال (وأحاط بكل شيء علما) وأثبت كونه مريدا للخير والشر بقوله (فعال لما يريد) وبقوله (يضل من يشاء ويهدي من يشاء) وأثبت كونه بصيرا بأعمال عباده بقوله (والله بما تعملون بصير) (ألأم يعلم بأن الله يرى) وأثبت العلم بقوله (الله بكل شيء عليم) وأثبت الكلام بقوله (وكلم الله موسى تكليما) وأثبت الحياة بقوله (لا إلا هو الحي القيوم) ورسالته بقوله (وما أرسلنا قبلك إلا رجالا يوحى إليهم) ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار) وبقوله (وأرسلناك للناس رسولا) وكونه آخر الأنبياء وخاتم النبيئين وأثبت أن كل ما سوى الله مخلوق بقوله (الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) وأثبت الجن بقوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) وأنهم يدخلون الجنة بقوله (لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) والبعث بقوله (وبعثر ما في القبور) إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتب العقائد كالإيمان بالقدر والميزان والحوض والصراط وتطاير الصحف والجنة والنار قال تعالى (ما

فرطنا في الكتاب من شيء) قال فعلم أنه لا ينبغي لمؤمن أن ينسى حدود ربه التي كلفه بها ويستغرق عمره برد الخصوم ولم يوجد منهم عين في بلاده وبرفع شبه يمكن أن لا تقع آخر الدهر ثم بتقدير وجودها فسيف الشريعة أقطع فالعاقل من اشتغل بعلوم الشرع فإن فيها غنية ولو أن الإنسان مات وهو لم يعرف الكلام على الجوهر والعرض لم يسأله الله تعالى عن ذلك إلى أن قال فقد بان لك مما ذكرناه أن من أراد حفظ عقيدته من الشبه والضلال فليأخذها من القرآن العظيم فإنه متواتر قطعي معصوم بخلاف من يأخذ عقيدته من طريق الفكر من غير أن يعضضه شرع أو كشف قال أولا ترى أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لما قالت له اليهود انسب لنا ربك كيف هو تلى عليهم قل هو الله أحد إلى آخرها ولم يقم دليلا واحدا من أدلة النظر فبقوله أحد أثبت الوجود والوحدانية للأحد ونفى العدد والصمد نفي الجسمية ولم يلد نفي الولد ولم يولد نفي الوالد ولم يكن له كفؤا أحد نفي الصاحبة والشريكة فطلب الدليل العقلي على صحة هذه المعاني بعد ثبوتها بالدليل القطعي جهل عظيم قال وليت شعري من يطلب معرفة الله من حيث الدليل والنظر فيه فكيف كانت حالته قبل النظر وفي حال النظر هل هو مؤمن أم لا وهل كان ثبت عنده أن الله موجود وأن محمدا عبده ورسوله أم لا وهل كان يصلي ويصوم أو لا فإن كان لا يعتقد هذه الأمور إلا بعد النظر في علم الكلام والاشتغال به فنعوذ بالله من هذا المذهب حيث أداه سوء الظن إلى الخروج من الإيمان وأما علم الفقه فهو فرض كفاية أيضا ما عدا فرض العين كأحكام الصلاة والصيام وأما ما سوى ذلك ليس بشرط في شيخ التربية قال الغزالي في الإحياء وقد اتفقوا أن شرف العلم إنما هو العمل به فكيف يظن أن علم الظهار واللعان ونحوهما ممن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله فهو مجنون إلى أن قال وأما علم المعاملات فهو علم أحوال القلب ما يحمد منه كالصبر والإخلاص والرضا والتفويض والشكر والخوف والرجاء والتقوى والصدق ونحوها وما يذم منه فخوف الفقر والخلق وسخط القدر والحقد والحسد والكبر والرياء ونحها فهذه أمثالها من صفة القلب من مغارس الفواحش وأضدادها المحمودة من منبعه الطاعات فالعلم بحدود هذه الأمور وحقائقها وأسبابها وثمراتها وعلاجها وهو علم الآخرة وهو فرض عين ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص والتوكل أو عن وجه التحرز من الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه ولو سأله عن اللعان والظهار والمساقاة والشركة والقرض ونحوها لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها وإن احتيج إليه لم يخل البلد عمن يقوم به ويكفيه مؤنة التعب فيها فلا يزال يتعب ليلا ونهارا في حفظها ودرسها ويغفل عما هو مهم نفسه في الدين وإذا روجع فيه قال اشتغلت فيه لأنه من علم الدين ومن فروض الكفاية فتراهم يتهاترون على علم الفقه لا سيما الخلافيات والجدليات والبلد مشحون بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع فليت شعري كيف يرخص في الاشتغال بفرض كفاية قام به جماعة مع إهمال ما لا قائم به ما لهذا سبب إلا أنه يتوصل به إلى تول الأوقاف والوصايا وتقلد القضاء والتسلط به على الأعداء والتقدم على النظراء هيهات هيهات قد اندرس علم الدين بتلبيس علماء السوء فالله تعالى المستعان وإليه الليذان ويعيذنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمان ويضحك الشيطان وقد كان علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب كان الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله عن كذا وكذا فيقال مثلك يسأل هذا البدوي فيقول إن هذا وفق لما غفلنا عنه وكان أحمد بن حنبل ويحيى بن معين رضي الله عنهما يختلفان إلى معروف الكرخي ولم يكن بمنزلتهما في علم الظاهر وكانا يسألانه انتهى كلام الغزالي فلما ثبت أن تلك العلوم لم تكن شرطا في شيخ التربية سنذكر نبذة من شروط الشيخ وصفته قال الشيخ الحلبي في رسالته اعلم أن كل من كان بصدد الإرشاد لا بد أن يكون عالما بما يحتاج إليه المريدون من الفقه وعقائد أهل السنة والجماعة وإن لم يكن متبحرا في العلمين بل يكون له اطلاع بقدر ما يزيل الشبه التي تعرض للمريد في بدايته والحاصل أنه لا يلزم في حق الشيخ إلا ما هو فرض عين في حق المريد كأحكام العبادات وأحكام المعاملات التي هي أحوال القلوب وقد تقدم ذكر بعضها آنفا في كلام الغزالي وذلك بأن يكون عالما بكمالات القلوب وآفات النفوس وأمراضها وأدويتها وكيفية حفظ صحتها واعتدالها وأن يكون رؤوفا رحيما بالناس عموما وبالمريدين خصوصا وأن يكون ناصحا فينظر في حال المريد بعدما يصحبه مدة فإن رآه قابلا للسلوك سلكه وحسن له الطريق وأعانه على ترك الأسباب بكل ما أمكنه من المال وغيره وإن رآه غير قابل للسلوك رده إلى حرفته وأمره بتعاطي الأسباب إن لم تكن له حرفة فإن الله لا يحب العبد البطال فإذا لم

يأمره بذلك فقد غشه والشيخ لا يكون غشاشا وعلامة القابل للسلوك أن يعادي نفسه ويتعبها بالجوع والسهر والانعزال عن الخلق وقلة الكلام وكلما أوذي لا ينتقم لنفسه بل يقيم عليها الحجة بأن يقول لها لو لم تكوني خبيثة لما سلط الله عليك من يؤذيك وغير القابل بأضداد هذا بأن كان مصادقا لنفسه راضيا عنها وينتصر لها إذا أوذيت فهذا لا يفلح ولا يشم للطريقة رائحة فيجب على الشيخ أن يقول له اذهب إلى حرفتك لئلا يضيع عليه سائر أصحابه فإن الطبع يسرق الطبع اللهم إلا أن يكون الشيخ من أهل التمكين والتصرف في القلوب فلا بأس أن يقيمه خادما للفقراء فمن بركة خدمته مع قوة الشيخ يفتح الله عليه وينعش عزيمته لقبول السلوك ومن شروط الشيخ أن يكون ستارا لأسرار الناس لا سيما المريدين وأن يكون غني النفس حسن الخلق لا يغضب إلا لله وأن يكون قد استوى عنده جميع المآكل والملابس من لين وخشن ولا يقدم بعض ذلك على بعض إلا لغرض شرعي وأن يكون أكبر همه تسليك السالكين لا جمعهم لتنصرف إليه وجوه الناس وأن يكون في جميع أحواله في الحالة الوسطى بين الإفراط والتفريط من الجوع والشبع والنوم والسهر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أنا والله أخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء) فأشار صلى الله عليه وسلم إلى أن الحالة الوسطى هي الحسنى وأنها حالة الأتقياء الكمل وأن من لم يتصف بها لا يرشد إذ ينبغي أن يكون المرشد قد فرغ من تأديبه نفسه وسلك الطريق حتى انتهى إلى كمالها وخرج عن رق أحوالها فكان جلاله ممزوجا برحمته وقهره ممزوجا بلطفه وغضبه ممزوجا بحلمه يسخط في عين الرضا ويرضى في عين السخط وليس الكشف من شروط الشيوخة وإنما يكون في مصلحة أرادها الحق تعالى في ذلك الأمر إما في حق الشيخ ومريده أوغيرهما فمن دخل على شيخ يختبره بذلك فهو جاهل هالك فإن الشيوخ لا يخبرون ولا يطلب منهم الكلام على الهواجس وإنما تراد معرفة الأمراض القلبية والعيوب النفسية وأدويتها لا غير ولذا اتفقوا أنه يجب على المريد أن لا يكتم عن الشيخ شيئا مما في ظنه ويعاقب المريد على كل هفوة تقدح في سلوكه ويكون المريد بحسب قوة عزمه ووفور عقله ونفوذ همته وضدها فلا بد حينئذ أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء وسياسة الملوك وطب الأطباء واعلم أن المجذوب إن مضى في جذبته ولم يرجع إلى تحقيق المقامات والسالك إن لم يؤهل لدخول الحضرة والاحتظاء بأنوار التجليات فكل منهما لا يؤهل للمشيخة أما المجذوب فلاشتغاله بحاله عن حال غيره وعدم تحققه بالمقامات وأما السالك فلنقصه بالبقايا التي حجبته عن حضرة ربه وبلوغ مطلبه وإنما يؤهل لذلك من جمع بينهما وسواء تقدم له السلوك أو الجذب إلا أنهما إن كانا في جواز الاقتداء بهما سواء لبلوغهما مرتبة التمكين وتحققهما بالكمال فالمجذوب المتدارك بالسلوك أعلى وأمكن لكون عبوره على المقامات على بصيرة وبينة من ربه مصحوب بالنور الكاشف عن حقيقة الأمور انتهى ومن شروط الشيخ أن يحقق مقام الفناء حتى يميز بين الوجود الحقيقي والوجود المجازي وإليه الإشارة بقول ابن البناء :

ولم ينزه صفة المعبود أو يدر كيف رتبة الوجود

فصفة المعبود هي الوجود الحقيقي ورتبة الوجود هي العدم الصرف وإلى هذا الإشارة بحديث (كان الله ولا شيء معه) وهو الآن على ما عليه كان وأشهد ابن عطاء الله لنفسه

ومتى شهدت سواه فاعلم أنـــه من وهمك الأدنى وقلبك ذاهـــل
وحديث كان وليس شيء غيره يقضي به الآن اللبيب العاقـــل

وقال في لطائف المنن وأشبه شيء بوجود الكائنات إذا نظرت فيها بعين البصيرة وجود الظلال فلا هو موجود باعتبار مراتب الوجود ولا معدوم باعتبار مراتب العدم وإذا ثبتت ظلية الآثار لم تنسخ الآثار أحدية المؤثر لأن الشيء إنما ما يشفع بمثله ويضم إلى شكله كذلك من شهد ظلية الآثار لم تعقه عن الواحد القهار فظلال الأشجار في الأنهار لا تعوق السفن عن التسيار انتهى وأنشدوا :

الله قل وذر الوجـــود وما حوى إن كنت مرتادا بلوغ كمـــــال

فالكـــــــل دون الله إن حققته عدم على التفصيل والإجمـــال
من لا وجـــــود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عبن محـــــــال
واعلم بأنك والحقائـــــق كلها لولاه في محو وفي اضمحلال

وقال ابن عباد عند قول ابن عطاء الله كن بأوصاف الربوبية متعلقا وب؟أوصاف العبودية متخلقا ما نصه : التعلق بأوصاف الربوبية أن تشهد وجودك من لوازم وجوده فلا ترى وجودك إلا بوجوده ولا بقائك إلى ببقائه ولا عزك إلا بعزته ولا قدرتك إلا بقدرته ولا غناك إلا بغناه إلى غير ذلك لا شيء من جميع ذلك لك وإنما هي عوار عندك ولا يتم ذلك إلا بأن تتحقق بأوصاف عبوديتك من عدمك وفقرك وذلك وعجزك والتعلق والتخلق متلازمان بل هما شيء واحد على التحقيق انتهى ومن لم يتحقق بهذا المقام حتى ميز ما بين الحق والخلق واتضحت له الحقائق حتى ميزها ربما أضله الشيطان وخذله كما روي عن بعض المريدين أنه كان في مجلس شيخه ثم انقطع عنه فقيل له هو بعافية فبعث إليه فحضر مجلسه فسأله عن موجب انقطاعه فقال يا شيخي كنت أتيتك لتوصلني إلى الله تعالى والآن قد وصلت فلا حاجة تدعوني إلى حضورك فسأله عن كيفية وصوله فقال إني أصلي وردي في الجنة كل ليلة فقال له الشيخ يا بني أما أنا فوالله ما دخلتها قط فلو تفضلت بإدخالي معك كما دخلت فقال نعم فبات الشيخ عند المريد فلما كان بعد العشاء إذا بطائر قد نزل على الباب فقال المريد للشيخ هذا هو الطائر الذي يحملني إلى الجنة فركبا عليه فطار بهما ساعة ثم نزل بهما في موضع كثير الشجر فقام المريد يصلي وقعد الشيخ فقال له المريد يا سيدي أما تقوم تصلي فقال يا بني ليس في الجنة صلاة فما زال المريد يصلي والشيخ جالسا فلما انصدع الفجر جاء الطائر فقال المريد للشيخ قم بنا نرجع فقال له الشيخ من يدخل الجنة ثم يخرج منها إلى شقي فجعل الطائر يضرب بأجنحته ويصيح ويريهما أن الأرض تحركت بهما فطاش لب المريد وقال يا شيخ قم بنا لئلا ينالنا مكروه فقال له الشيخ إن هذا يستهزئ بك يريد أن يخرجك من الجنة فاستفتح الشيخ وقرأ القرآن فذهب الطائر وبقيا كذلك إلى أن تبين الضوء فإذا هما على مزبلة والعذرات والمستقذرات حواليهما فصفع الشيخ المريد وقال له هذه الجنة التي أوصلك إليها اللعين قم واحضر مع إخوانك وجاهد نفسك حتى تخلص من أسر الشيطان ورق الهوى والنفس فامتثل أمره حتى نجح وبلغ مبلغ الرجال وشتانا ما بين هذا وما روي عن الشيخ عبد القادر الجيلي أنه كان في بعض خلواته في بدء أمره حتى تخيل له الشيطان فأراه أنه ملأ الأفق نورا ثم ناداه ولم ير شخصه يا عبدي إني أنا ربك قد أتعبت نفسك بالخدمة وإنني أسقطت عنك التكاليف وأبحت لك ما حرمته على غيرك فتداركته العناية الإلهية وألهمه رشده فقال اخسأ يا ملعون فلست بربي وإنما أنت الشيطان الرجيم (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) فقيل للشيخ بماذا عرفت أنه الشيطان الرجيم فقال إني سمعت صوته بجارحة أذني من جهة واحدة وخطاب الله عز وجل ليس هو بحرف ولا صوت ولا يختص بسماعه الأذن عن القدم ولا غيرهما من سائر البدن ولا تكون له جهة وكان محمد بن واسع رحمه الله يغلس إلى المسجد فلما كان ليلة إذا بشخص يحمل السراج فقالت جارية من هذا الذي يحمل السراج للشيخ في مثل هذه الليلة المظلمة فسمعها محمد بن واسع فقال لها دعيه حتى يشقى أشقاه الله فعرف الشيطان أن الشيخ عرفه فأطفأ سراجه وهرب فلم يره بعد ذلك ومن شروط الشيخ ما حكى يحيى بن معاد فقال رأيت أبا يزيد البسطامي من بعد صلاة العشاء إلى صلاة الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخمصيه مع عقيبه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينه لا يطرف ثم سجد سجدة عند السحر فأطال فيها ثم قعد وقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم المشي على الماء والمشي في الهواء فرضوا منك بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قومك طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فانقلب لهم الأعيان فرضوا بذلك منك وإني أعوذ بك من ذلك حتى نيفا وعشرين من كرامات الأولياء وهو يتعوذ منها ثم التفت فرآني فقال يحيى قلت نعم يا سيدي قال متى أنت ها هنا قلت منذ قمت فقلت يا سيدي حدثني بشيء قال أحدثك بشيء يصلح لك أدخلني في الفلك الأسفل فردني في الملكوت السفلي فأراني الأرضين وتحتها إلى الثرى ثم أدخلني في الفلك العلوي فطوفني في السماوات وأراني ما فيها من الجنة والعرش ثم أوقفني بين يديه فقال سألني أي شيء رأيته أهبه لك فقلت يا سيدي ما رأيت شيئا أستحسنه فأسألك إياه فقال أنت عبدي حقا تعبدني لأجلي صدقا لأفعلن بك ولأفعلن بك ولأفعلن بك وذكر أشياء قال يحيى فساءني ذلك وعجبت منه فقلت يا سيدي لما لم تسأله المعرفة إذ قال لك ملك المعرفة سلني ما شئت قال

اسكت ويلك أغار عليه مني لا أحب أن يعرفه سواه قال الشيخ أبو طالب المكي لما ذكر هذه الحكاية فهذا حال عبد عن نفسه مأخوذ إذ كان له ربه عز بوجوده وأطال في مقامه في المقامات فقصرت عنه الصفات (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس) انتهى والعقل والنفس معا والروح يعني أنه يشترط في الشيخ أن يكون عارفا بحقائق هذه الثلاث أما النفس فهي لغة في الروح وما به حياة الإنسان والعقد نحو (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) أي ما عندك أو حقيقة والعقوبة نحو (ويحذركم الله نفسه) أي عقوبته قاله في القاموس وأما النفس في اصطلاح القوم فتطلق بإزاء معان منها النفس الشهوانية وهي البخار اللطيف الحامل للحياة والحس والحركة الإرادية وهي التي تسميها الحكماء بالروح الحيواني وهو جوهر مشرق على البدن فإن أشرق على ظاهر البدن وباطنه حصلت اليقظة وإن أشرقت على باطنه دون ظاهره حصل النوم وإن انقطع إشراقه بالكلية حصل الموت قال تعالى : (الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى) إمساكها بالموت وأرسالها ردها للجسد والمرسلة نفس التمييز تبقى بدونها نفس الحياة والعكس ويقال إن في ابن آدم النفس وتأمر بالشر والروح بها التحرك والتنفس ولا تخرج إلا عند الموت وتأمر بالخير وقال علي كرم الله وجهه تخرج الروح عند النوم ويبقى شعاعها في الجسد فبذلك ترى الرؤيا وتعود فيها إذا انتبه بأسرع من لحظة العين انتهى وأما النفس الناطقة فهي جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في أفعاله وهذه هي التي تسمى بالأمارة واللوامة والملهمة والمطمئنة والراضية والمرضية والكاملة فكلما اتصفت بصفة سميت لأجل اتصافها بها باسم من هذه الأسماء فإن صادقت النفس الشهوانية المذكورة آنفا ووافقت في الطبع الحيواني ودخلت تحت حكمها سميت أمارة قال تعالى : (إن النفس لأمارة بالسوء) وإن سكنت تحت الأمر التكليفي وأذعنت لاتباع الشريعة لكن بقي فيها ميل للشهوات ربما يوقعها في المخالفات فتنتبه لذلك فتلوم صاحبها سميت لوامة قال تعالى : (ولا أقسم بالنفس اللوامة) فإن زال هذا الميل وقويت على معارضة النفس الشهوانية وزاد ميلها إلى حضرة القدس وتلقت الإلهامات سميت ملهمة وهذا المقام خطر إذ قد تلهم بأنواع الإلهامات من الشياطين والملائكة وغيرهم ولم يحصل لها من النور ما تميز به بين الخير والشر كما وقع للمريد الذي خذله الشيطان قال تعالى : (فألهمها فجورها وتقواها) فإن سكن اضطرابها ولم يبق فيها للنفس الشهوانية حكم أصلا ونسيت الشهوات سميت مطمئنة فإن ترقت عن هذا وسقطت المقامات من عينها وفنيت عن جميع مراداتها سميت راضية فإذا زال عنها هذا الحال سميت مرضية عند الحق والخلق فإن أمرت بالرجوع إلى العباد بإرشادهم وتكميلهم بعد كمالها سميت كاملة باستكمالها مقامات العبودية بملاحظة الربوبية وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : (يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي) وتنقسم مراتب النفس السبع على مقامات السالكين فاللوامة في مقام الأغيار للمسلمين وإليه الإشارة بقوله تعالى : (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) والثاني مقام الأنوار للمؤمنين والثالث مقام الأسرار للصالحين قال تعالى : (وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك) والرابع مقام الكمال للمحسنين وإليه الإشارة بحديث (أن تعبد الله كأنك تراه) والخامس مقام الوصال للشهداء المحبين والسادس مقام تجليات الصفات وإلى هذا المقام الإشارة بقوله تعالى : (فاولئك مع اللذين أنعم الله عليهم من النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا) وكلما كان السالك في مقام من المقامات كان محجوبا به عما بعده فمن كان في المقام الأول فهو محجوب بالأغيار عن مشاهدة الأنوار والأنوار حجب عن الأسرار والأسرار حجاب عن الكمال والكمال حجاب عن الوصول والوصول حجاب عن تجليات الأفعال والأفعال حجاب عن الصفات والصفات حجاب عن الذات وأما تجلي الذات فهو المعبر عنه بمقام العمى لأنه يعطي ظلمة كالنظر إلى عين الشمس فالناظر إليها لا يرى شيئا وهو المعبر عنه بالقطبانية ثم الغوثية ثم الهوية ثم الصمدانية ولها أوصاف لا تسعها دائرة العقل ولا تحويها قوالب النقل واعلم أن هذا الجوهر المذكور المسمى بالنفس الناطقة له أسماء أخر باعتبارات متفاوتة فيقال له القلب ويقال اللطيفة الإنسانية ويقال له حقيقة الإنسان وهو المدرك العالم المخاطب بالتكليف وله ظاهر وباطن فظاهره النفس الشهوانية وباطنه الروح ولباطنه حس وهو السر والسر له باطن هو الخفي وللخفي باطن وهو الأخفى وباطن الشيء حقيقته والمراد من سلوك طريق التصوف هو الترقي في هذا الأمر الرباني شيئا فشيئا بالعلاجات التي أتى بها الشارع صلى الله عليه وسلم من الذكر والفكر والصلاة والصوم والجوع

والسهر وأكل الحلال وتجنب الحرام والشبهات إلى غير ذلك على الوجوه المستورة في كتب القوم واعلم أن بين العبد وربه سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشف واحد منها لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه والسبحات بضمتين قال في القاموس وسبحات وجه الله أنواره وتلك الحجب إنما هي راجعة إلى العبد لأن الله تعالى لا يحجبه شيء إذ لو كان له حاجب لكان له قاهرا (وهو القاهر فوق عباده) فالمحجوب في الحقيقة هو العبد والمراد بالحجب عند المحققين بعد الإدراك فافهم ولا تعتقد أن الحجب أمور حسية ولا أن البعد بعد مسافة كما يتوهمه القاصرون فإنه سبحانه و تعالى منزه عن البعد والقرب الحسيين ومنزه عن الجهة والمكان وغيرهما من سمات الحوادث ولذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسري به إلى مستوى سمع صرير الأقلام وسمع النجوى من الملك العلام وناجى يونس في قعر الأرض تحت ظلمات البحر فسمع نجواه وكشف بلواه فقال (لا تفضلوني على يونس ابن متى) يعني من حيث الجهة والمكان وأما مطلق الفضل فهو صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق من نبي وملك وغيرهما وسلوك الطريق عبارة عن تمزيق الحجب السبعين وهي ترجع إلى السبع المقامات فالنفس في كل مقام محجوبة بعشرة حجب الأول أكثف من الثاني والثاني أكثف من الثالث وهكذا إلى التاسع فهو أكثف من العاشر وهكذا حجب كل نفس فحجب الأمارة أكثف من اللوامة وهكذا إلى آخرها وإلى مراتب النفس وإلى حجبها أشار ابن عطاء الله بقوله في الحكم لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ولا قطعة بينك وبينه حتى تقربها وصلتك ولولا خوف التطويل الممل الذي هو بقصد الاختصار مخل لأفردنا كل نفس بصفاتها وأمراضها وعلاجها وحجبها وخرقها وأذكارها وآدابها وأورادها وورودها وحالها ومآلها وأما العقل فقد اختلفوا فيه قال في القاموس العقل العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين أو مطلق الأمور أو للقوة يكون بها التمييز بين القبح والحسن أو لمعان مجتمعة في الذهن أو مشيئة محمودة للإنسان في حركاته والحق أنه نور روحاني تدرك به النفس العلوم النظرية والضرورية وابتداء وجوده عند اختتان الولد ثم لا يزال ينمو إلى أن يكمل عند البلوغ انتهى كلام صاحب القاموس قال الغزالي في الإحياء العقل يطلق على أربعة معان الأول الوصف الذي يفارق به الإنسان سائر الحيوانات وفيه قول الحارث المحاسبي إنه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب والثاني هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ووجوب الواجبات والثالث علوم تستفاد بالتجارب فإن من حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل وضده الغمر الذي لم يجرب الأمور والرابع أن تنتهي تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة فصاحب هذا عاقل فإن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر وفي العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة فالأول هو الأس والثاني هو الفرع الأقرب والثالث فرع الأول والثاني معا بقوة الغريزة مع العلوم الضرورية يستفاد والرابع هو الثمرة وهو الغاية القصوى أول ابتدائه من سن التمييز ثم لا يزال ينمو حتى يكمل بقرب أربعين سنة فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب ولذا قال علي كرم الله وجهه ورضي عنه :

رأيت العقل عقليـــــن فمطبوع ومسمـــوع
ولا ينفع مسمـــــــوع إذا لم يك مطبـــوع
كما لا تنفـــع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : (ما خلق الله عز وجل خلقا هو أكرم عليه من العقل) والأخير هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : (إذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك) وقال صلى الله عليه وسلم : (إن أول ما خلق الله العقل وقال له أقبل فأقبل مسرعا ثم قال له أدبر فأدبر مسرعا قال الله عز وجل فوعزتي وجلالي ما خلقت خلقا أكرم علي منك بك آخذ وبك أعطي وبك أثيب وبك أعاقب) واعلم أن العقل يتفاوت في الناس فليست عقول الأنبياء كعقول غيرهم ولا الأولياء كغيرهم ثم تتفاوت العوام فيه أيضا على حسب القسمة الأزلية ويشير إلى تفاوته ما روي أن عبد الله بن سلام سأل النبي صلى الله عليه وسلم في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت يا

ربنا هل خلقت شيئا أعظم من العرش قال نعم العقل قالوا وما بلغ قدره قال هيهات لا يحاط بعلمه هل لكم بعدد الرمل قالوا نعم قال الله عز وجل فإني خلقت العقل أصنافا شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطي حبة ومنهم من أعطي الثلاث والأربع ومنهم من أعطي فرقا ومنهم من أعطي وسقا ومنهم من أعطي أكثر من ذلك انتهى من الإحياء والفرق بالتحريك صاع بالمدينة يسع ثلاثة آصع أو ستة عشر رطلا والوسق بالفتح ستون صاعا أو حمل بعير قاله في القاموس والعقل حجة الله على خلقه وهو مليك القلب ووزير الروح وبه يقع التدبير وتثبت الحجة ومعدنه القلب الذي هو محل الحياة لقوله تعالى : (لهم قلوب لا يعقلون بها) ومادته الحواس ونوره في الدماغ وقيل محله الدماغ لأن الإنسان إذا أصيب في رأسه اختل عقله وقيل العقل شجرة في القلب وأغصانه متدلية في الدماغ ولما كان العقل عليه رقيبا ولكن الهوى بغلبة سلطانه وخفي مكره تنفذ أحكامه على العقل فيموه الأمور حتى يتوهم القبيح حسننا كما قالوا حبك الشيء يعمي ويصمي وفي الحكم العطائية لا يخاف عليك أن تتلبس عليك الطرق وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك وفي الحديث (طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء) وأنشدوا :

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويرا

فائدة : وفي كشف الرموز للمقدسي أن القلب خلق كامل الوصف له وجهان ظاهر وباطن فظاهره أرضي طبعي مظلم وباطنه سماوي علوي نوراني فكثافة ظاهره وظلمته لمباشرة القوى الطبعية ولطافة باطنه لمواجهة الملكوت الربانية فعلى قدر مواجهته لها تنعكس فيه فمثاله مرآة لها وجهان ظاهره كثيف مظلم وباطنه لطيف مضيء فيظهر فيها ما قابلها من غير حلول ولا اتصال بها ولا تحيز في شيء منها كذلك الرب سبحانه إذا تجلى على عبده بعد صفائه من الأكدار شاهده بعين قلبه وبصر بصيرته من غير حلول ولا اتصال ولا انفصال وهذه الخصوصية للآدمي دون الملك لأن الملك خلق من لطيف فقط وهو نور كله يشف ظاهره وباطنه فهو كالزجاجة الشفافة نورها خارق ولا يتمثل فيها ما قابلها قلت وإلى هذا يشير الحديث القدسي : (لا تسعني أرضي ولا سمائي ولا عرشي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن) والله أعلم بحقيقة ذلك وأما الروح فقد تقدم بعض تفسيرها لاشتباكه واشتباهه بالنفس وأما الوقوف على حقيقته فلا تدرك بالظواهر لأنه من أمر الله ولذا لما سئل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل(يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي)
تنبيه : قول ابن البناء الروح مع قوله الشيوخ وقع فيه الإكفاء وهو أن تجمع القافية بين حرفين متقاربين في المخرج كالحاء والخاء بإهمال وإعجام حلقيان ومن الإكفاء قول الراجز :

بني إن البر شيء هين المنطق اللين والطعيـــم

وقل الآخر :

إذا ركبت فاجعلوني وسطا إني كبير لا أطيق العندا
ولا أطيق البكرات الشردا

العند كركع جمع عاند وهو البعير يجوز الطريق ومن الإكفاء أيضا قول الراجز :

قبحت من سالفة ومن صدغ كأنها كشية ضب في صقع

السالفة صفحة العنق والصدغ بالضم ما بين العين والأذن والشعر المتدلي عليه والكشية بالضم شحمة بطن الضب أو أصل ذنبه وقولهم أطعم أخاك كشية ضب حث على المواساة وقيل بل يهزأ به والدال والقاف

في صدغ وصقع مضمومتان إتباعا لما قبلهما وأما إن جمعت القافية حروفا متباعدة في المخرج سمي بالإجازة كقول الراجز :

إن بني الأبرد أخوال أبـــي وإن عندي إن ركبت مسحلي
شم شماريخ رطاب وحش

فجمع بين الباء واللام والشين وكلها متباعدة ومما اجتمعت فيه حروف بعضها متقارب وبعضها متباعد قول الشاعر :

ألا لا أرى إن لم تكـــن أم مالك بملك يدي إن البقاء قليـــــل
رأى من رفيقيه جفاء وغلظـــة إذا قام يبتاع القلاص دميـــم
خليلي سيرا واتركا الرمل إنني بمهلكة والعافيات تـــــزور
فبيناه يشري رحله قال قائـــل لمن جمل رخو الملاط نجيـب

والقصيدة لامية والإكفاء والإجازة كلاهما من عيوب القوافي كمل وانتهى وجاء بحمد الله فوق الغرض المشتهى والحمد لله حمدا كثيرا بلا انتهاء والسلامان على سيدنا محمد الذي إلى سدرة المنتهى انتهى وعلى آله وأصحابه ما كسفت الغزالة ضياء السهى من لم يدع أثرا للكفر إلا طمسه وعفاه ولا رسما إلا أزاله ومحاه تدارك من الإسلام الذماء الباقي وتلافى منه نفسا بلغت التراقي وانتاشه بعدما التفت الساق بالساق فأنعشه بظباة السيوف حتى خلده في الآفاق فنسأل الله سبحانه بجاهه أن يمن علينا لما فاتنا لقياه بالهداية وبإدامتها إلى غير غاية وألتمس ممن عثر فيه على وهم أو خلل أن يلتمس له حسن المخرج فلعله خفي عنه وجه الصواب الذي عثرت عليه لا فيه بيد أنه لا يعصم إلا المعصوم من الزلل وقلما يخلص مصنف من الخلل ولا أدعي أنه جمع سلامة من التغيير والتكسير ولله در القائل :

فإذا ظفرت بزلة فافتح لهـــا باب التجاوز فالتجاوز أجـــــدر
واعلم بأن المرء لو بلغ المدى في العمر لاقا الموت وهو مقصر
يا ناظرا في ما عمدت لجمعــه اعذر فإن أخ البصيرة يعـــذر

وكأني ببعض المعارضين ينكر التصنيف على المتأخرين ولا يدري أن باب التصنيف مفتوح لمن ساعده توفيق من الله عز وجل كما قاله المبرد في الحديث الصحيح (أمتي كالغيث لا يدرى هل أوله أفضل أو آخره) ولله در القائل :

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا و يرى للأوائل التقديمـــــا
إن ذاك القديم كـــــان جديدا و يصير الجديد يوما قديمـا

ولله در الآخر :

ادأب على جمع الفضائل جاهدا وأدم لها تعب القريحة والجسد
واترك كلام الحاسدين وبغيهـم هملا فبعد الموت ينقطع الحسد
واقصد بها وجه الإله ونفع من بلغته ممن جد فيها واجتهـــد

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين وتابع التابعين ورضي الله عن الأئمة الماضين ورحم الله الآخرين